الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

60 دقيقة هزّت العالم

قصة المجزرة التي تعرض لها أسطول الحرية



د. هانيّ سليمان

60 دقيقة

هزّت العالم

قصة المجزرة التي تعرّض لها أسطول الحرية

تأليف

د. هاني سليمان

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

مقـدِّمـة

لماذا تُقدم اسرائيل على التعرض «لأسطول الحرية» المتجهة إلى غزة في المياه الدولية؟

هـل تخـاف مـن مئـات الناشـطين الأجانـب، الذين ركبوا سـفنهم لإعـلان التضامـن مـع شـعب محاصـر، ام أنهـا تخـاف ممَّـن هـم وراء هـؤلاء، مـن مؤسسـات المجتمـع المدنـي في دول ناصـرت حكوماتها اسرائيل على الدوام؟

أما كان أفضل لها أن تفوِّت على حركة حماس «الارهابية» نصراً كبيراً، كما تقول وسائل إعلامها.

لمـاذا تنتحـب جريـدة «يديعـوت أحرونـوت» الصهيونية قائلة: لقد حققت حماسُ نصراً كبيراً دون ان تطلق رصاصة واحدة، وتردِف وهي تمسـح دموعهـا: «ان القافلـة لـم تصـل إلى غـزة، لكن غزة وصلت الى قلوب الملايين».

لقد أجمعت الصحف الاسرائيلية على ما وصف العملية الإسرائيلية بـ «**الخـرقــاء**» قائلة: «**إن إسرائيل قد أهينت**»، وأن «هذا الردع قد جعل مـن إسـرائيل دولـة قراصنـة». لتنتهـي هذه الصحف إلـى النتيجة التالية: «**فشل استخباري، تبعه فشل عملياتي، قاد إلى فشل سياسي**». هي لا تعتـذر للضحايـا عـن فِعلتهـا. وبالرغم من ذلك / بل وبسـببه/ فإني، وأنا الجريح والضحية، «أفهم» موقفها جيداً. وأرى في اعتذارها – إذا حصـل – تعهـداً منهـا بعـدم تكـرار القتل في المرة القادمة. كيف لها أن

تُناقِضَ ما شبّت عليه منذ نشوئها، وهي تشيب هذه الأيام؟

ومع ذلك، يتجمّع اليهود أمام السفارة التركية في «إسرائيل» بعد المجزرة، ليحتفلوا برصاصات قاتلة في قلوب محبي الحرية.

هل القتل ناشئ عن شعور بالقوة، أم عن شعور بالضعف والخوف إزاء حملة بحرية عالمية سلمية؟

كيف ستتصرف تلك المارقة مع أسطول من ثلاثين سفينة، سيتجمّع من موانئ جميع القارات في الربيع المقبل، ليصل إلى موقع المجزرة في البحر، فيحتفل بالذكرى السنوية الأولى لاستشهاد تسعة، وجرح اربعين من النشطاء الأتراك والأمميين، فيطلق الأسهم النارية غير القاتلة للبشر، ويلقي الخطب «القاتلة» للعنصرية، ومن ثم يكمل طريقه الى حيث ينتهي الطريق في غزّة.

ان أوضح تفسير لخلفيات ما قامت وتقوم به إسرائيل هو ما جاء على لسان قادة ذلك الكيان. يقول نتانياهو: «**لقد ذهلت إسرائيل من ذهول العالم**». **ولقد هب «المجلس المصغر» للحكومة، «ليستغرب الهبة العالمية» ضد إسرائيل، ويتخذ القرارات المناسبة.**

منذ سنة تقريباً، وضع مجلس حقوق الانسان في الأمم المتحدة تقرير «**غولدستون**» عن العدوان على غزّة، فوصف أعمال إسرائيل بأنها جرائم إبادة، وجرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية.

وقبل عدة أشهر وضع مجلس حقوق الانسان في الأمم المتحدة تقريراً عن جريمة التعرض «لأسطول الحرية» في البحر، فأدانها بأقسى العبارات، واعتبر أن هذه الجريمة تستدعى المحاكمة أمام المحاكم الدولية.

هـي جريمـة هـزت ضميـر العالـم من طنجة على الأطلسـي، حتى جاكرتـا فـي المحيـط الهـادئ، مـروراً بأوروبا وأميركا، فتلّوت إسـرائيل علـى نـار الشـجب والإدانـة، في الصفحـات الأولى لكبريات الصحف، في الأنترنت والفضائيات، في الشـوارع كما في الأروقة، في المحافل السياسـية كما الدبلوماسـية، لدرجة أن أميركا وللمرة الأولى في تاريخ السياسـة الخارجية الأميركية، وبسـبب من الحرج، **تمتنع للمرة الأولى عن إعلان «الفيتو» ضد إدانة إسرائيل في مجلس الأمن.**

جراء هذه الجريمة، خاف العالم على نفسـه من حالة تسـيطر فيها عقلية القتل البارد، وتنحسر فيها قيم المحاسبة، فتَحوّل هذا الخوف إلى صحوة عالمية، تجلَّت بحملات كسـر الحصار عن غزّة بعد المجزرة، ولقـد جـاءت هـذه الحمـلات رداً مباشـراً علـى سـلوك منحـرف وعقل صَلِف، فكانت الحملة الأسيوية من الهند، والحملة الإفريقية، والحملة الأوروبية، ومن شـمال وجنوب أميركا. إضافة إلى ما شـهدته وتشـهدُه الساحات والشوارع العربية.

فـي الربيـع القـادم مـن هـذه السـنة سـيتجمَّع في البحـر الأبيض المتوسط عدد كبير من البشر حاملاً رسالة تضامن مع أهل غزّة، وناقلاً منهم رسالة جوابية، عنوانها الشكر ومضمونها العهد على الوفاء.

هـم أحـرار أوروبـا والعالـم ارتـادوا البحر فـي جمعية **«غزّة حرة»**، وعبروا برَّ أوروبا وصولاً إلى فلسطين عبر جمعية **«تحيا فلسطين عربية»**.

Viva palestina arabia

هي ثقافة الشعوب، وكان للإسلام والعرب دور في اغنائها يوماً من الأيام، وجاء يومهم للتنعّم بنعمتها والاستفادة من قيمها. ثقافة الشعوب

هذه، تكونت عبر مؤسسات لحقوق الانسان، فكانت مبادرات كسر الحصار عن غزّة، فسقط شهداءُ أجانبُ على غير أرضهم، وتحول اسم «أسطول الحرية» إلى مرادفٍ لمظلومية شهدها العالم بأم العين.

* * *

الحمد لله على السلامة... هل ستكرر المحاولة ثالثة؟

أسئلة متكررة استقبلتني بعد العودة من غزة.

الجواب على هذه الأسئلة كان مربِكاً، لا بل محرِجاً... كانت قناعتي الداخلية قد استقرت على عدم المشاركة الشخصية في الاسطول الثلاثيني المزمع انطلاقه مطلع الربيع المقبل، لأن هذه المشاركة ستفسّر ربما، باحتكاري للدور والشهرة وحب الأضواء، وهي صفات لا تستقيم مع مغامرتين حملتا من المخاطرة ما يجنب «العاقل» مجرد التفكير بما بعدهما لو بقي حياً. أما الاعلان عن هذه القناعة فأخشى أن يفسر بالتوبة والتراجع وتعلّم الدرس القاسي من «إسرائيل».

حقيقة الأمر، وكما هو معروف عني، فإني لم أندم ولم أتُبْ. ولهذا، فإني أشجع الآخرين على اعلان رغبتهم وتسجيل أسمائهم وتحضير أنفسهم للمشاركة في الرحلة القادمة.

عشرات بل مئات من الجمعيات الأهلية العالمية عقدت العزم على اطلاق هذا الأسطول.

مئات بل آلاف من الناس سجلوا أسماءهم لهذا اليوم الموعود.

آلاف... وملايين من الدولارات والعملات الأخرى جمعت تبرعاً لهذا المشروع.

بضع عشرات من السفن تم شراؤها أو كراؤها تحضيراً لساعة الانطلاق.

من يومٍ أن دخلت آلامُ الفلسطينيين إلى بيوت الناس عبر الفضائيات، أصبحت فلسطينُ قضيةَ الإنسان في دول تحتضن أحراراً وأصحاب نفوس تأبى الظلم.

يومها «انتزع» أحرار العالم قضية فلسطين من أصحابها، فاندفعت سفنهم باتجاه غزّة، وشهدت شوارعهم أكبر وأضخم تظاهرات شهدها مطلع هذا القرن، وشهدت محاكم العواصم الأوروبية ملاحقات قضائية لقادة الكيان الصهيوني، فتجنبوا النزول في مطاراتها، خوفاً من الاعتقال.

منذ ذلك اليوم أدركت أن العالم بدأ يصحو.

ومن يومٍ أن قال لي المحقق الصهيوني في الرحلة الأولى إلى غزّة: «**أنتم تحاصروننا بالرأي العام العالمي الذي يتهمنا بالعنصرية**»، تذكرت المثل القائل: «لو خليت فنيت».

لقد أدركت بالملموس، من الصديق كما من العدو، أن قضية فلسطين قد أضحت قضية عالمية، فدخلت دائرة الضوء العالمي، وفشلت محاولات التعتيم عليها في الغرف السوداء، الدولية منها والعربية.

ولكي لا يكون هذا الانطباع سباحة سهلة في بحر التفاؤل... لا يفوتني القولُ إن الصهيونية العالمية قد سبقتنا بأشواط إلى جعل «قضية إسرائيل» قضية عالمية بامتياز. فالدوائر الاستعمارية، تصرح ليل نهار، «**أن تهديد أمن إسرائيل هو تهديد لمصالح الغرب**»، فجعلت منها

«الطفل المدلل» ذي القبضة الحديدية، خدمة لمشـاريعها الاسـتعمارية ومصالحها الاقتصادية واطماعها البعيدة المدى، الهادفة للسـيطرة على قلب أمتنا، على سـمعها وبصرها، على شـرايينها وباطن أرضها، على سمائها وبحرها، على مواصلاتها واتصالاتها.

مقابـل هـذا التبنـي الغربـي الصريـح لطفـل غريب زُرع في أحشـاء أمتنـا، تحركَـت حفنـة طيبـة من يهـود أوروبا «فامتطت» السـفينةَ باتجاه غزّة تضامناً مع أهلها في الصيف الماضي، فكان مصيرها الاعتقال في المياه الدولية.

هل هذا التحرك هو نوع من المغامرة أو حبِّ الإستطلاع، أم هو مبادرة فرضتها ظروف القهر على شعب محاصر، فجاء تعبيراً عن امتعاض هؤلاء من سلوك أبناء جلدتهم، أو تنصلاً من عمل يشين أبناء جلدتهم، أو إعلاناً **أن اليهودية ليست تماماً كالصهيونية؟**

هل هي التظاهرة الأولى ليهود غربيين عبّروا عن «**لا صهيونتهم**» على امتداد العقود السابقة. وهل هذه المبادرة هي طفل يتيم لن يرزقَ بشـقيق؟ أو هـي فعـل عقيـم لـن يـرزق بخَلَف... أو أن المرحلة المقبلة ستكون حبلى بتعبير الأحرار عن رفض ما يؤذي الانسان ويهدد حياته في أرضه؟

لماذا يبادر تسـعة وثلاثون من رؤسـاء وقادة أوروبا السـابقين، إلى التوقيع على عريضة واحدة أواخر سنة 2010، تطالب «إسرائيل» بالاعتراف بدولة فلسطين وقد تحرروا من الضغوط الصهيونية بعد فترة ولايتهم.

عاصرتْ فلسـطينُ ثلاثةَ قرون من الزمن، ولـم يسـتطع المشـروع

الاستعماري الصهيوني إعلان السيطرة عليها حتى الآن.

لا أنسى ما قاله لي المحقق الصهيوني في الرحلة الولى: **«هذا صراع لا ينتهي بيننا إلا بحرب عالمية ثالثة»**.

واليوم تتجمع في الأفق ملامح صحوة عالمية شعبية، بدأتْ تدرك أن الدول الاستعمارية هي ايضاً «مستعمَرَة» من اللوبي الصهيوني.

لقد بات معروفاً أن عدداً من حكومات أوروبا والعالم، تمنع على مواطنيها تحت طائلة السجن، أيَّ تشكيك أو حديث عن حجم محرقة اليهود، وأنه لا يحق لأحد في الدنيا أن يتحدث عن هذه المحرقة إلا لليهودِ دون غيرهم، وأن حديثاً هامساً وغامزاً بين ناس هذه الدول يدور مستنكراً هذا التحريم «Taboo».

وللعلم... فإن اليهود قد ساهموا في تعديل شروط القانون الدولي، من أجل تفادي تفتيش السفن في أعالي البحار لتجنيب السفن التي كانت تقلّ المهاجرين اليهود من التفتيش، والذين فرّوا من النظام النازي. هذا القانون نفسه الذي استخدموه بالأمس، طالتهم مفاعيلُه اليوم. جعلوه سفينة نجاتهم، فإذا بها تغرقهم، والآتي من الأيام كفيل بالخبر.

* * *

سفينة «الأخوة اللبنانية» التي انطلقت في شباط 2009 هي نقطة البداية العربية في مسيرة عالمية حديثة، تتطلع لإحقاق الحق في فلسطين. احتجزت السفينةُ في ميناء أشدود الصهيوني، ظناً من العدو أنه بحجزه إياها، إنما يلقن درساً لأصحاب السفن الأخرى، فيخيفهم ويمتنعون عن تأجيرها للناشطين الجدد، فكان لرئيس لجنة **«المبادرة الوطنية لكسر الحصار عن غزّة» معن بشور أن أعلن أنه «مقابل السفينة**

الأسيرة، فإن أسطولاً من السفن سيتوجه إلى غزّة».

لم يكن بالحسبان أن هذه الدعوة ستلقى الصدى الواسع والاستجابة غير المسبوقة لهذا النوع من التضامن مع شعب غزّة. ربما لأن الأشكال السابقة للتعبير قد أدت قسطاً ملحوظاً من النجاح، لكن تلك النشاطات على أهميتها كانت مألوفة ومسبوقة.

أشهد، أنه طوال فترة التحضير «لأسطول الحرية»، بدءاً من اجتماعات عقدناها في اسطنبول على هامش مؤتمر نصرة غزّة، وبعد أسبوعين على تجربة سفينة الأخوة اللبنانية مع أخوة أتراك وجزائريين وأردنيين وكويتيين وبحرينيين، أشهد أني لم أشهد يوماً إلا وكان فيه اتصال بالخارج، أو كان فيه اتصال من الخارج، تنسيقاً وتحضيراً للرحلة.

ومع دخولي العقد السابع من العمر، أشهد أني قد بدأت أسمع بدولٍ ومدن، لم أكن لأسمعَ بها في حياتي، تشهد أنشطة تحضيرية لانطلاق الأسطول.

وأشهد أن قادة العدو، لم يكونوا بأسوأ حال نفسية مما كانوا عليه في الحروب الكبرى، تجلّى ذلك باعتدائهم الوحشي على الأسطول.

وأشهد أن قتل وجرح الناشطين، بقدر ما كان غضباً من الأتراك، فقد هدف إلى وضع حد للناشطين الغربيين، في محاولاتهم الانتصار لغزّة وفلسطين.

* * *

مع عودتي من سجن ميناء أشدود إلى الوطن عبر الناقورة في المرة الأولى، كانت وفود من هيئات أهلية وشعبية، ومن ممثلين عن المقاومة في لبنان، تعلن تبنّيها لهذه الدعوة التي سرعان ما انتشرت في دنيا العروبة والإسلام وبلاد الإغتراب والعالم الخارجي كالنار في الهشيم.

لقد كانت هذه السفينة ﴿...كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. (سورة البقرة).

وما زاد من حرارة التبني لهذه الدعوة خارجياً، هو تلقف أهل غزّة لها في الداخل، ومبادراتهم المتعددة لاستقبال الأسطول على غير صعيد، فتشكلت لجان الاستقبال، وزيارات الأضرحة وعيادة الجرحى ومعاينة مخلفات الحرب، وكان توسيع ميناء غزّة وتعميقه، الشغلَ الشاغلَ للمسؤولين فيه، لتمكينه من استقبال سفن الشحن الكبرى التي كانت في عداد الأسطول، والتي كانت محمّلة بأطنان من المساعدات الغذائية والطبية وكميات من الحديد والإسمنت ومولدات الكهرباء لبعض مستشفيات غزّة.

على أهمية ما حملته هذه السفن من مساعدات عينية، فإن أعظم ما حملته وأفْعَلَه، هو تلك العواطف الجياشة، وذلك النبل المجموع من أقاصي الأرض، والمجبول بحرارة اللقاء بفلسطين وأهلها.

كانت الفضائيات العاملة في غزّة تحمل إليها ومنها، أصدق المشاعر وأنبل العواطف، فسهر الأهالي اللياليَ الطوال على الشاطئ

ينتظرون وصول «أسطول الحرية»، وانطلقت الزوارق والمراكب مزدانة بأعلام فلسطين، «فافترشت» أرض البحر، و«نصبت خيامها» فيه، تلهفاً للقاء الأحبة، على ما يقول الشاعر الجاهلي:

وأكثر ما يكون الشوق وصلاً إذا دنت الخيام من الخيام.

حتى صيادي الأسماك، فقد وفرّوا ما جَنَتْه شباكُهم قبل الوصول المفترض للأسطول، لتقديمه وليمة للضيوف الأعزاء.

هو«العالم الحر»، فعلاً لا قولاً، ينتصر للحق أينما وجد.

وهي العروبة الحضارية، التي ترى في احرار العالم أخواناً...

هي رحلة التناصر والتعاضد في «حملة صليبية» مباركة هذه المرة، لا إستعمارية ولا إستيطانية، بل هي فِعْلُ توضيح بين المشاركين الغربيين وأندادهم العرب، لفَهْم مُلتبس كان قائماً على معادلة: «أن كل الغرب إستعمار»، و«أن كل العرب طغيانٌ وتخلف وعبودية».

* * *

عـدت إلـى بيـروت بعـد إصابتـي علـى سـفينة «مافـي مرمـرة»، موزعاً بين الألم في أعصاب الرِجل اليمنى، وبين محاولة كتابة هذه القصة، **ايفاءً لعهد قطعته على نفسـي بتوثيق هذه الرحلة.** وكنت، ما أن ينام الألم قليلاً حتى أقومَ لأوراقي لأحبرّ الصفحات بالانطباعات والمشـاعر. لكـنْ أنـىّ لـيَ ذلـك؟ فمـا أن يلامسَ القلـمُ الورقةَ، حتى يستفيق العصب، وكأن بين الورقة والعصب حلفاً غير مقدس ضدي.

كنـت مصـراً علـى «زيـارة» الورقـة، لكـن القلـم كان جاسوسـاً عنـد العصـب. وعلـى طريقـة السـارق فـي تنويم كلب الحراسـة، كانت المسكنات وسيلتي إلى سرقة بضعة أسطر... لكن كتابةً مع الألم كانت أشبه بقراءة صحيفة في مناخ عاصف.

كنتُ كل ما كتبتُ شيئاً، أعرضه على زوجتي، وقد نَهَلتْ من الأدبين الإنكليزي والفرنسـي في الجامعة، ما جعلها ذاتَ باع في منهجية النقد والملاحظة، أما من الأدب العربي، فالإرساليات الأجنبية عدو مبين.

خلال نوبات الألم الطويلة بالرغم من المسكنات، كنت أنسلّ ليلاً من غرفة النوم، هارباً إلى غرفة مجاورة، متمنياً أن أبكي، علّ في البكاء مـا يلهينـي عـن نفسـي. لكـن باب البكاء كان موصـداً بوجهي، وأن باباً آخر كان مفتوحاً على مصراعيه.

هـو بـاب الابتسـام حتـى حدود الضحك. بـاب بدرفتين. أحداهما الفرح... وثانيتهما الشكر للطفر بالنجاة. قائلاً: **سبحان الله كيف تسير**

الأمور بالمقادير.

واللهِ... برغم كل الألم، كنت أضحك تجلُّداً. وفي إحدى المرات أكثر ما أضحكني قهقهةً... هو تعليق زوجتي على ما قدمته لها للإطلاع.

وقفت أمامي، وحارت في اختيار كلمات تُعلِّق بها على ما قرأتْ، صمتت لبرهةٍ... وقالت: **«هذا النص مفشكل مثل أعصاب رجليك».**

العهد الثاني الذي قطعته على نفسي، هو زيارة السفينة القائدة في أسطول الحرية **«مافي مرمرة»** بعد عودتها إلى اسطنبول، والوقوف في المكان الذي أُصَبتُ فيه.

لقد عوَّدتنا تركيا على المفاجآت، وها هي اليوم «تمعن» فيها، فتدعو جميع المشاركين في «أسطول الحرية» للاحتفاء بالسفينة في نفس المكان الذي انطلقت منه بعد استعادتها وترميمها.

ترسو السفينة في ميناء **«كاناكال»** التركي الذي يبعد عن ميناء اسطنبول ثلاث مئة كيلومتر أو أكثر بقليل.

المطلوب منا أن نذهب إليها، والتوجه بها ليلاً نحو اسطنبول، لنصل منتصف اليوم التالي حيث الاحتفال والحشود في الميناء.

كانت السيارة وسيلتَنا للسفر.

ما أن تتركَ اسطنبولَ بصخبها وضجيجها، حتى تُلفِيَ نفسك في أحضان الطبيعة.

سهوبٌ تنداح امامنا ومِنْ حولِنا، تتغذى برذاذ خفيف اشتاقت إليه.

تتوتَّد (من وتد) هذه السهوبُ بجبالٍ تنساب بلطف نحو البحر. يتكيء الواحد منها جنب الآخر انبساطاً كرَجُلَين يتسامران، وقد افترشا

الأرض ليبللا رجليهما بماء الشاطئ. المدن والقرى كوشمٍ متناثر في وجه الطبيعة. أعداد من البشر تتماهى مع قطعان من الغنم، لا تَمايُزَ بينها إلا بطول البشر. هم الغجر وما أدراك ما الغجر. نساء في الحقل تعمل، ورجال في البيت يبذّرون.

تستأذن الشمسُ الجبلَ اقتراباً، فيستأذن الغروبُ الظلامَ انسياباً. لكأن الظلام مولج باخفاء العلاقة الحميمة بين الشمس والجبل.

وتوغلُ في مساحة الأرض والغجر صوب تخوم البلقان، لتعترضك لوحة فيها سهمان، وعليك أن تختار بين وجهة بلغاريا أو يونانستان. أنت تتجه غرباً وتركيا تتجه شرقاً. لقد ضللنا الطريق قليلاً، فيعيدنا إلى «صوابنا» شرطي يوحي لنا بوجهة السير الصحيحة... إلى ميناء «**كاناكال**»...در. إلى حيث تنام، تلك التي سهّرتْك طويلاً وأنت تحلم بها.

فتحت السفينة ذراعيها وغمرتنا كأم رؤوم، ورحنا هائمين على وجوهنا نبحث عن بعضنا، ونستعيد ذكرياتٍ عزيزة، وتفاصيلَ حميمة.

كانت قد نُسجتْ بيننا صداقات وعلاقات، ولا بدَّ من البحث عن اصحابها واحداً بواحد.

* * *

- يا آدم أين ذلك التركي الذي كان يجالسنا، لماذا لم يحضر إلى السفينة حتى الآن؟

- يا أسفي، هل تعلم ماذا حلّ به يا أستاذ؟

اسمه أور سليمان / يا للصدفة إنه ابن عمي / هو رجل تركي

غني جداً، بل من أغنى أغنياء تركيا، بكى حين قيل له لن تذهب إلى غزّة، لأن عدد الأتراك قد اكتمل.

كان رفضُ مشاركتِهِ نابعاً من كونه رجل عجوز، لا يتحمل مشاق السفر، وكان يكفي أن يوسط صديقه رئيس الوزراء حتى تتم الموافقة، لكنه لم يفعل. وحين جاءت الموافقة لاحقاً بكى ثانية، واستأذن زوجته بالسفر وكتب وصية حدد فيها واجباته. بعد المجزرة وُجدتْ نسخةٌ من الوصية على متن السفينة. إنه يرقد الآن في المستشفى في غيبوبة عميقة (كوما) جراء إصابة في الرأس.

* * *

- فرقانُ إبنُ التاسعةَ عشرةَ ربيعاً. وُلد في نيويورك. كان يكتب يومياته على السفينة ساعة بساعة. بعودة «مافي مرمرة» إلى تركيا، عُثر على ورقة من أوراقه تقول: **«لا أعرف منْ أحبُّ أكثر... أمي أم الشهادة»**. ثم يقول: «لتعذرني أمي إني أحب الشهادة». خلال لقاء أردوغان مع أوباما عرض عليه الأول صورة فرقان الشهيد قائلاً له: هذا أميركي أيضاً، ألا تطالب بدمه؟

رفض أوباما مجرد استلام الصورة أو النظر إليها.

* * *

أهلاً أهلاً يا إحسان علمت أنك قد جُرحت... الحمد لله على السلامة.

- يا أخي... ألفُ شكر لله. دخلت رصاصة في راسي وخرجت من فمي. واخترقت أخرى خاصرتي. تخيّل يا صديقي أني لم أفقد الوعي. وبالنظر لكوني فلسطينياً وأُجيد اللغة العبرية فقد سمعت

أحد الجنود يقول لزميله: هذا أبن ال... لم يمت بالرغم من إصابته البالغة. ولأني فلسطيني فقد اشترطوا عليّ في المستشفى ألاّ أحاول الدخولَ مرة ثانية، وإلا سيسحبون مني أوراقي، فتصبح إقامتي غير شرعية ويطردوني من فلسطين. رفضتُ التوقيعَ، فاضطروا لإيصالي إلى منزل الأهل. بدخولي عليهم لم تتعرف أختي عليّ بفعل الإصابة في الوجه.

* * *

- **إللّي إلو عمر... ما بتقتلوا شدة.** هكذا أجابني أحد العرب الذي اصيب بست رصاصات.

أقسم لك يا أخي، لقد شعرت أن روحي تخرج من رجلي، فحاولتُ سدّ جراحي في الأرجل منعاً لروحي من الصعود.

كان ذلك الرجل «يفرفر» على السفينة كعصفور جميل، عارضاً على النشطاء مكان الإصابة في الرأس، متعجباً من معجزة نجاته من الموت.

وماذا عن العصفور الحقيقي على السفينة؟

كان احد الأتراك قد أتي بقفص جميل فيه عصفور غرّيد. كانت نيته أن يطلقه أثناء وصوله إلى غزة تعبيراً عن الحرية. استشهد صاحب العصفور، ولم يُبْلغنا أحد ماذا حلّ بالعصفور. لعله مات عطشاً أو جوعاً أو قهراً، فالجنود «منشغلون» بالبشر ولا وقت عندهم للاهتمام به.

* * *

يوم اسطنبول كان مشهوداً، حين وصلتْ «**مافي مرمرة**» إلى الميناء. مئات الآلاف تقاطروا للاحتفال بها، حتى ليمكن القول إن اسطنبولَ المدينة قد زحفت نحو اسطنبول الميناء. كان الاحتفال مهيباً، وكانت

اعلام فلسطين ترفرف في كل الأنحاء جنباً إلى جنب مع صور الشهداء التسعة الأتراك.

من يقرأ في وجوه الناس، ويسـمع شـهاداتهم وهتافاتهم، يتبين أن تركيـا قبـل مجـزرة الأسـطول هـي غيرُهـا بعدها. إنه الحـد الفاصل بين تركيا الأمس وتركيا المستقبل.

كانت كلمات ممثلي الهيئات الدولية المشاركة في أسطول مرمرة واضحة في تصميمها على اطلاق الأسطول الثلاثيني مطلع الربيع القادم.

وقد جاءت كلمة مطران القدس هيلاريون كبوجي تتويجاً وقسماً ردده الألوف وراءه، وعهداً على متابعة الطريق.

بكـى الألـوف حيـن سـمعوا اصراره علـى رؤية القدس قبل مماته، وقد جاور التسعين من العمر. وبكَوا أكثرَ حين رددوا وراءه نداء **«الله أكبر»** عشرات المرات. سقطت الفوارق الدينية على طريق القدس، فإذا الأحبارُ قادةً في اسطنبول على طريق نصرة الحق.

المشـهد البالـغ التأثيـر كان حيـن اجتمـع رواد الأسـطول وأهاليهم وعوائـل الشـهداء علـى سـفينة مرمـرة، وراح كل واحـد منهم يسـتجمع ذكرياتـه وكأنـه يفتـش عـن وديعـة تركهـا وعـاد ليسـتعيدها. أما الألوف وعشراتُها ومئاتُها، من اللذين لم يصعدوا إلى السفينة **«المباركة المطهرة بدماء الشهداء»**، فمن تسنى له لمسُها وعناقُ جدرانها المحاذية لرصيف الميناء فقد ظفر، أما من تُبعده المسافات عنها، فقد ارتضى أن يعانقها بالنظر عن بُعد وهي تتوسـط تسـع سـفن تحمل كل واحدة منها اسـمَ شهيد تركي سقط في المواجهة.

عوائل الشـهداء تنتحب بصمت على السـفينة قرب صور أحبائها

التي ركزت في مكان استشهادهم. الصور موزعة في جميع الأرجاء لكأنها تخومٌ تُحدد معالمَ السفينة، او لكأنها حراس يتطلعون في كل اتجاه. صورٌ ينقصها النطق والشهادة بالحق.

* * *

لا شيء مشتركاً بين القاتل والضحية الناجية إلا مكان الجريمة. كلّ يعايِنها على طريقته.

الضحية تفرح بالنجاة... والقاتل يأسف لفشله في تحقيق هدفه.

الضحية تتألم جسداً، والقاتل «يتألم» خيبة.

الضحية ترمِّم نفسها والقاتل يرمِّم مكان الجريمة.

تتطلع الضحية إلى المستقبل ويغور القاتل في الماضي.

ما أن وطأت قدماي أرض السفينة حتى قاداني إلى حيث سقطت جريحاً.

بالرغم من الإعاقة في الحركة، هرولت صعوداً على الأدراج، تاركاً العكاز لزوجتي، فبدت وكأنها هي المصابة، حماها الله، لقد «أصيبت» مرتين.

بحثت عن الدم فلم أجده. بحثت عن مكان الرصاصتين اللتين اخترقتا رجليَّ فلم أجده، لكن صورة الشهيد التركي المنصوبة في المكان «دلتني» على مكانها. كأن عينيه كانتا تنظران إليه.

تقدمت متفحصاً، فإذا بأثر باهت لهما يؤكد وجودهما. وَدِدْتُ لو أثقبُ سطح السفينة لأُلاحق مسرى الرصاصتين فأحتفظَ بهما شاهدتين على الجريمة.

* * *

كما أشرت في البداية، يعود التأخُّر في كتابة هذه القصة، إلى حجم الآلالـم التـي انتابتنـي طـوال هذه المدة، وإلـى نوعية الأدوية التي كنت «أسفُّها» تسكيناً للألم في العصب المجروح نتيجة رصاصة «منتظَرة» مـن طائـرة منظـورة. هـذه الرصاصة تحمل سـمة الغـادرة بتوقيتها، بقدر ما تحملها بالتوصيف.

في كل يوم تأخير، كنت أخشـى ضياع بعض التفاصيل، فالوقت، كما يقال، حليف النسيان.

والسبب الآخر للتأخير، هو عدم استقراري على أسلوب أنقل به هذا الحدث الذي هزّ ضمير العالم، وأنزل الناس من «المهاجع» إلى الشوارع، كأن حريقاً حلّ ببيوتهم فهرعوا يطلبون النجاة من جريمة تحدث عنها أصدقاء المجرم بامتعاض ومَقْتٍ... فما بالك بالآخرين؟

هل أكتب بالأسلوب الذي اعتمدته في الكتابة عن الرحلة الأولى إلى غزّة، في سفينة «الأخوّة اللبنانية»، في شباط / فبراير/ 2009، وهو الأسـلوب السـردي الذي جمع بين القصة بلا خيال، وبين الوقائع بلا وثائـقَ، فاختـرت لهـا عنوانـاً «**غـزّة في مرمى البصـر**»؟ أم أعتمد التوثيق اليومي، فأدوّن بالساعة والدقيقة مشاهدات حية جارية؟

ومـا زاد فـي حيرتـي أيضـاً هـو اختيـار عنوان لهـذه القصة. هل أختار العنوان ذاته لهذه الرحلة المشابهة للأولى، وإن اختلفت وقائعها في الزمان فهي لم تختلف كثيراً في المكان؟ كيف أختار «**غزّة في مرمى البصر**»، وأنا لم أرَها هذه المرة، ولم تكن على مرمى بصري...؟ في المرة الأولى غسلنا

وجوهنا بمياهها الاقليمية، وعلى بعد أميال منها لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، كدنا نسمع أصوات الطائرات المُغيرة على البشر والحجر والشجر.

كان قد استقر بي الرأي على عنوان لهذه القصة هو **«معركة ذات الصواري»**، وهي المعركة البحرية الأولى في الإسلام، التي قادها كاتب وحيِ الرسول الأكرم (ﷺ) عبد الله بن أبي سرح، في السنة الواحدة والثلاثين للهجرة.

هي معركة التحمت فيها جيوش المسلمين مع جيوش الروم في «كيليكيا»، واشتبكت فيها السفن بالسفن والصواري بالصواري، فكان المسلمون في هذه الحال يقاتلون وكأنهم على اليابسة. وبسبب من بأسهم وإيمانهم، انتصروا نصراً مبيناً، وانهزم الروم وارتدُّوا عن البحر إلى البر، فأصبح البحر الأبيض المتوسط **«بحيرةً عربية اسلامية»**. وبقدر ما استهواني عنوان هذه الواقعة للتشابه والتشبُّه، قلت في نفسي: «تمهل، لعل عنواناً آخرَ يفي بالغرض.

وعلى صحة اختيار هذه العناوين لقصة عن مجزرة وقعتْ على سفينة طبقت شهرتُها الآفاق، سألت نفسي معاتباً: «هل يجوز إغفال ذكرِ «مرمرة» من العنوان وهي السفينة «القائدة» في أسطول الحرية، وهو الاسم الذي اختاره أحرارٌ أجانب، كانوا بدفاعهم عن غزّة ينتصرون للقيم الإنسانية، ولروح العدالة، وللحق في الوجود؟»

وخلافاً لمقولة هيرودوتوس **«أنت لا تعبر النهر ذاته مرتين»**، فقد استهواني عنوان يقول **«أنت تعبر البحر مرتين»**، تأكيداً على رحلة كسر الحصار الأولى، حين امتطينا البحر نفسه وسلكنا الطريق نفسها.

كانت هذه العناوين كسرب من طيور الرهو، ما إن يتقدّم أحدها على الآخر حتى يستدير حول نفسه وحول السرب في آن، ليصبح في

مؤخّرة السرب. على انّ «طائراً متميزاً» لفتني، فظلّ في مقدّمة السرب لفترة أطولَ من غيره. فكان العنوان: «**ستون دقيقة هزّت العالم**».

لقد استوحيت هذا العنوان من الناشط المدني الأميركي **جون ريد** الذي عايش الثورة البلشفية في روسيا القيصرية وكتب عنها قصته الخالدة بعنوان «**عشرة أيام هزت العالم**».

وبالرغم مما بين الحدثين من فارق الظروف والتأثير، فإني أعتقد أن اختياري لهذا العنوان يجد تبريره في التداعيات والتأثيرات وردود الفعل المتلاحقة التي أحدثها الاعتداء على «أسطول الحرية» على المستوى العالمي.

غاب عنّي هذا العنوان لفترة. وخلال البحث عنه، وقعت على عنوان اعتقدتُ أنه يفي بالغرَض، واستعضت بالله بديلاً وقلت: إن عنواناً كـ «**حجٌّ في البحر**» هو قريب من الواقع، «فالحجيج» على السفينة ذكروا «**غزّة هاشم**» مئاتٍ بل آلافَ المرات، وقبرُ هاشم بن عبد مناف، جد الرسول لأبيه (ﷺ)، موجود في غزّة.

خلال كتابة هذه السطور في يوم صيفٍ لاهب، بدأ نور الشمس يثقل عليّ الكتابة في غرفة شرقية من البيت، تزداد حرارتها «بسرعة النور»، حتى خلت أنّ الشّمس قد «هربت» من الحرّ لتتفيّأ في غرفتي. في تلك اللحظات أخذ العرق يتصبّب منّي منحدراً من صلعتي إلى عينيّ، فطغت غشاوة على ذهني، وأخذني دوار الأفكار والرؤى والأحاسيس، فألقى القلمُ بنفسه على الأرض، وضاعت مني العناوين، ورحنا يبحث بعضنا عن بعض، فلم يعثر أحد على أحد.

* * *

لقـد قـرأت «**العنـوان العريـض**» للمجزرة قبـل حصولها بعدّة أيام. وقـراءة الخبـر هـذا قبـل حصولـه، لا تحتـاج إلى مبصِّـر أحياناً، بل إلى مُبصر يجيد الملاحظة.

كانـت وفـود المشـاركين تتداعـى إلـى النـادي الرياضـي المسـمى «الإِسـتاد»، في مدينة أنطاليا السـاحلية التركية، حيث التجمُّع للانطلاق إلـى الميـناءِ المعـدِّ لرحلـة «أسـطول الحرية». رجال ونسـاء وشـبان في مقتبل العمر. مسلمون ومسيحيون ويهود، عربٌ وأجانب. القاعة كبيرة جداً، «يفضحُ» ضيقَ مسـاحتِها العددُ الكبيرُ من المشـاركين، بحقائبهم وأدواتهم الشخصية، بحناجرهم العطشى للبَوح والهتاف بما يُكِنّون وما يضمرون. بترديدهم عبارة «الله أكبر» لدى ذكر «الأقصى»، أو لدى كل قولة يقولها ناشط، او لدى كل صرخة يطلقها إمام مسجد القدس الشيخ رائد صلاح، أو دمعة تنسال على خدّ مطران القدس في المنفي هيلاريون كبوجي. ومع كل صرخة أو نداء، كانت «ترتعد فرائص الجدران»، حتى لتخال أنّ هزّة أرضية تعصف بالمكان.

في تلك اللحظات الصاخبة، ومع تزاحم الأصوات الراعدة، يأتي صـوت العزيـزة رحـاب مكحـل مديرة المركز العربـي الدولي للتواصل والتضامـن مـن بيـروت، مستفسـرة عمَّـا يجـري، وعمّـا يؤخـر انطلاقـة الأسـطول، فأُخبرها أن الجو عابق بالعواطف الجياشـة، وهو مشـحون بالإصـرار والتحـدي، فـإذا نفَّـذ العـدو نياتـه باقتحـام الأسـطول وأسـرِ الناشـطين فإنّ مجزرة «تنتظرنا» على الباخرة، وسـيصل «الدم للركب»

كما يقال. تطلب رحابُ المزيدَ من التوضيح فأقول لها: «إسمعي ماذا يجري»، وأفتحُ الهاتف المحمولَ على المسموع، لتسمع هتافات الإصرار على الإِبحار، وعلى نصرة أهلِ غزّة، مهما كانت الأثمان فتقول: «الله يحميكم»، وننهي المكالمة.

بدأت الفنادق تعج بالوافدين إلى انطاليا بتاريخ 23/ 5/ 2010. وكان موعد الانطلاق محدّداً في اليوم التالي للوصول، لكن سلسلة من المَعُوقات أخَّرتِ الموعدَ أسبوعاً كاملاً، أفدنا منه للتعارف والتواصل والتنسيق. كان الفندق الذي نزل فيه الوفد اللبناني مخصصاً للاجتماعات المركزية، فأعضاء الوفود يقصدونه لاستلام بطاقاتهم من هيئة التنسيق، و لمتابعة بعض التطوّرات، حتى لبدا الفندق كخلية نحل.

تزامَن وصولي إلى الفندق مع وصول المطران هيلاريون كبوجي إليه آتياً من روما. وكان لتوه «هارباً» من المشفى بعد عملية جراحية في القلب، وقد اشترط عليّ اختيار الفندق نفسِه، لأنّه على حد قوله، قد «جرَّبني»، واستمتع برفقتي في الرحلة الأولى، آملاً تكرار التجربة في «أسطول الحرية».

ما إن وصل المطران إلى الفندق حتى انفرط عقد التنظيم الذي تمتاز به خلايا النحل إلى ما يشبه عجقة سير بيروتية أمام غرفته. مراسلون ومعجبون عرب وأجانب، نشطاء من كل الجنسيات. فضوليون ومحبُّون جاؤوا لتحيته، ما جعلني أتعلم مهنة جديدة، هي تولّي «تنظيم السير» أمام غرفة المطران وداخلها.

كانت «أرتال النمل» تتقاطع في ما بينها، فتحدثُ «اصطدامات» خفيفة، سرعان ما تَشفى منها «الضحية»، ويعقبها اعتذار وتعارف.

كان الفندق قديمَ العهد متوسطَ المستوى، خالياً من التجهيزات المتطورة ووسائل الخدمة الحديثة، باستثناء تلفاز كبير يتصدر غرفة الاستقبال. وبالرغم من خلو الفندق من حوضٍ للسباحة، كنتُ كلما اتصلَتْ بي عائلتي، أجبتُها بأني ملتزم نصائح الطبيب بالرياضة الدائمة والسباحة المنتظمة في حوض الفندق «ذي النجوم الخمس».

لم يكن لدينا وقت نضيعه باستثناء ساعات الغروب، فنصطحب المطرانَ إلى شاطئ إنطاليا الجميل، حيث ينداح البحر أمامنا.

في تلك الأمسيات، وبدون استدراج منا، كان المطران مندفعاً، يروي نشأته وحياته في فلسطين وكأنه يتحدث للمرة الأولى. خلال هذه الأمسيات تعرفت على مأساة أبي محمد شكر- أبي الشهداء- ربِّ العائلة التي قضت جميعُها بقصف منزله في بلدته البقاعية النبي شيت، إبّان حرب تموز 2006.

خلال العودة إلى الفندق، لا يكفّ «هيلاريون» عن شكري لدعوته «للجلوس إلى البحر»، ففي هذه الجلسات ترويح عن النفس بعدما وصل الهمّ عنده «للرقبة لا للركبة»، كما يحلو له أن يردّد.

* * *

كان الجالس في صالة الاستقبال في الفندق، كمن يَحضر عرضاً للرسوم المتحركة، يوجب متابعة الحركات والتصرفات، كي لا يفوتَه أيُّ تفصيل...ليغمرَه بعد كثير من التركيز شعور بالإرهاق يدعوه «للهرب» إلى غرفته، وإلى مجالسة أنيس آخرَ.

ليلة السفر إلى تركيا، أهداني الصديق ياسر قشلق **«السلام المفقود»**. وهو كتاب يروي مذكراتِ وزير خارجية مصر الأسبق الدكتور محمد ابراهيم كامل عن مباحثات واتفاقات «كمب ديفيد»، التي أدارها أنور السادات «بعظمة بالغة»، كما يقول الكاتب ساخراً.

لقد استقال محمد ابراهيم كامل من منصبه في وزارة الخارجية المصرية اعتراضاً على مباحثات «كمب ديفيد»، وقد جاءت استقالته ليلة التوقيع على المعاهدة في نيويورك، فقفل عائداً من واشنطن إلى بلاده من دونَ المرور بنيويورك.هذه الاستقالة كانت ثالثة لإثنتين مُعترضتين على نهج السادات في المفاوضات، الأولى لوزير الخارجية آنذاك محمد فوزي، والثانية لوزير الخارجية اسماعيل فهمي.

يروي محمد ابراهيم كامل أنه لم يكن ضد مبدأ المفاوضات لاسترجاع سيناء ولترسيخ الحل الشامل للقضية الفلسطينية، وأن اعتراضه كان منصباً على التنازلات الجمَّة وعلى الإهانات التي كان يتعرّض لها الوفد المصري من قِبَل الفريق الإسرائيلي المفاوض.

يروي الكاتب أنه أثناء رئاسته للجنة السياسية المصرية للمفاوضات،

وخلال اجتماعه مع وزير خارجية «اسرائيل» في القدس آنذاك، دخل عليهم رئيس وزراء «إسرائيل» مناحيم بيغن وخاطب وزير خارجيته قائلاً:» **لماذا تضيّعون وقتكم مع هؤلاء**»، كما التفت إلى محمد إبراهيم كامل قائلاً له: «هل أنتم مجانين لتطالبوا بالضفة الغربية أرضِ اجدادنا... هل طلبنا إليكم يوماً أن تنسحبوا من القاهرة، وهل نحن مجانين حتى نقبل بمناقشة هذا الطلب»؟

أنا في اسطنبول في رحلة إلى غزّة، فيأخذني محمد ابراهيم كامل إلى الضفة الغربية... وأنا اقرأ هذه المذكرات عن صَلَف «إسرائيل»، وما سمعته عن تهديدات باعتراض الأسطول تيقّنتُ أن مجزرة كبرى سيتعرّض لها «أسطول الحرية». فإسرائيل «لا تمزح» في القضايا التي تتهدد أمنها كما تقول، فكُرمى لعيون جنديين اختُطِفا، دمرتْ لبنان في تموز 2006. وبسبب صاروخين أطْلِقا من غزّة، دَمّرتْ غزّةَ على رؤوس أهاليها، فكيف ستسمح لأسطول يقلُّ أناساً من كل القارات تجمّعوا «لينفجروا» حباً بأهل فلسطين، وعلى مقربة من مفاعل «ديمونا» الصهيوني؟

وما زادت من حدسي الذي وصل حد اليقين المسبق بحصول المجزرة، لم تكن الوقائع على الأرض في تركيا أو غيرها فحسب، وإنما قناعة مسبقة زادها رسوخاً، اطلاعي على الكتاب المتميز الذي أصدره كلٌّ من د.ستيفن والت – عميد كلية كنيدي في جامعة هارفرد، – ود. جون ميرشايمر، – برفوسور العلوم السياسية في جامعة شيكاغو – بعنوان «**اللوبي الإسرائيلي والسياسة الخارجية الأميركية**». هذا الكتاب يتحدّث بمرارة عن سيطرة اللوبي الإسرئيلي على مفاصل القرار

الخارجي الأميركي بحيث يعتبر الكاتبان فيه «أن إسرائيل أصبحت عبئاً على أميركا يجب التخلص منه... دون التخلي طبعاً عن دولة اسرائيل، بوجودها وتفوقها وديمومتها».

لقد روَّج الكاتبان لكتابهما على غلافه بجملة تقول: «بعد المقالة التي هزت العالم بجرأتها».

يـروي الكاتبـان ص -11- <<أن الـرد علـى مقالتهمـا التـي تنتقـد إسـرائيل جـاء حابسـاً للأنفـاس، فبحلـول تمـوز / يوليـو/ 2006 سـجل موقـع كليـة كينـدي 275 ألـف قـراءة أو تصفُّـح للمقالـة، وتلقينا طلباتٍ بترجمة المقالة أو إعادة طبعها، وولَّدت المقالة، كما هو متوقع، زوبعة ناريـة مـن الانتقـادات مـن مجموعات نادرة وأفراد في «اللوبي»، وندّدت بنـا «الرابطـة المناهضـة للتجريـح»، كما ندّد بنا كتَّاب مقالات الرأي في عدد من الجرائد، بوصفنا مُعادين للسامية>>.

يضيف الكاتبان ص (26): << يصعب الحديث عن تأثير «اللوبي» في سياسة أميركا الخارجية، أقلَّه في وسائل الإعلام الرئيسية في الولايات المتحدة، من دون اتهامك بمعاداة السامية، أو بأنك يهودي يكره نفسه>>.

ويضيف الكاتبان ص (95):

«ويعطي الردُّ على كتاب الرئيس الأسبق جيمي كارتر بعنوان «السلام لا الفصل العنصري» مثالاً كاملاً على هذه الظاهرة، ففي حين يدافع كارتر «عن حق إسـرائيل في الوجود في وسـط آمن وسـلمي»... وبرغم ذلك، وبسبب أنه أوحى أن سياسات إسرائيل في الأراضي المحتلة تشبه نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا»، فقد شنَّ عدد من هذه المجموعات

حملة تشنيع قبيحة ضده، واصفين إياه بانه «معاد للسامية وكاره لليهود، بل إن بعض النقاد اتهموه أيضاً بأنه متعاطف مع النازيين>>.

وأنت تنهي قراءة هذه السطور، يكاد ينفذ الهواء من صدرك، ليعود بزفرة طويلة مترافقة مع التساؤل والعجب.

هل هذا الكارتر «أبو كمب ديفيد» الذي حاول طمس قضية الشعب الفلسطيني، وأخرج مصرَ من نفسها ومن دورها التاريخي، هو كارهٌ لليهود ومتعاطف مع النازية ومعاد للسامية؟

ويذهب بك الغضب بعيداً... فتلتقي أحياناً مع أعدائك فتقول: كارتر بالتأكيد ليس بكاره لليهود، ولكنه بفعلته هذه معاد للسامية التي نحن أبناؤها. وينتهي بك العجب إلى السؤال... إذا فعل يهود أميركا بكارتر ما فعلوه، فماذا سيفعلون بنا في البحر الأبيض المتوسط.

وما زاد في يقيني بحصول المجزرة، هو تأخر انطلاق الأسطول أسبوعاً كاملاً. صحيح أ ننا كنا نمضي الوقت بالإجتماعات والتحضيرات والإتصالات، لكن الوقت كاد يقتلنا مع وصول أنباء من هنا وهناك، تفيد أن باخرة الشهيدة **راشيل كوري** الآتية من إيرلندا قد عطلها «الموساد» في مينائها، فتأخر إبحارُها يومين. ونقلَ إلينا البريد الالكتروني أن الباخرة المنطلقة من اليونان قد فشلت في الإبحار بسبب نجاح «الموساد» في تعطيلها، فتأخر إبحارها ايضاً ليومين إضافيين، وأنبأتنا الهواتف النقالة أن الضغط الدبلوماسي الأميركي - الإسرائيلي على حكومة قبرص قد نجح في منع النواب الأوروبيين من الانطلاق من ميناء قبرص، فاضطروا للانتقال إلى قبرص التركية للإلتحاق بالأسطول المنتظِر في مدينة أنطاليا التركية.

أخبار إعاقة الإبحار تتواتر وأعصاب الناشطين تتوتَّر، مشدودةً على وتر انطاليا - غزّة، حيث تتناغم مع هذا الوتر أصواتٌ وأناشيدُ تؤكد النية في الإبحار والوصول إلى الهدف مهما بلغت التضحيات.

* * *

على الرغم من فنادقها التي تعج بالسواح، فإن «إنطاليا» هي مدينة هادئة على العموم. طيلة إقامتنا فيها كان المناخ شبهَ معتدل، مائلاً إلى الحرارة. لم نتمتع بنسـمة باردة، ولـم نرَ ورقة شـجر تتحرك، أو غصناً يتمايل، أو حتى غيمة شفافة في السماء.

يبعُدُ الميناء بالسـيارة عن الفندق نصفَ سـاعة. ويبعد عشـر دقائقَ سيراً علـى الأقـدام مـن حيـث أنزلتنـا الباصات. لكن، وبسـبب ازدحام النشـطاء أمـام مدخـل المينـاء للتأكـد مـن هوياتهـم وعـرض حقائبهـم علـى التفتيـش، تمطَّـت الدقائـق العشـر وطالت لكأنها سـاعات. وفجأة فعـل الزمـان فِعْلَـه بالمـكان، فاصطفقت أبواب الميناء، واعترى الأعلام المرفوعة مرضُ الرَّجفةِ بعدما كانت في شـبه شـلل، وراحت الأشـجار تنتفض بانفعال ونَزَق كراقصة فردت شعرها وراحت تَلوح بعنف برأسها، والغيمة الخفيفة الشفافة التي افتقدناها في المدينة، حضرت بكل ثقلها في الميناء سوداءَ داكنةً كثوب الحداد. وفعل التواطؤ بين الريح والغبار فِعلَه في عيون الناس... فرُفعتِ الشماسي.

ما هذا الوداع الغاضب، وقد منَّينا النفس بوداع مختلف؟

ربما أراد غضبُ الطبيعة أن يبلّغ رسالةً مفادها أن «إنتبهوا للبحر»... ولا أدري لمـاذا قـرأتُ الرسـالة بالمقلـوب، فألتفـتُ إلى المطران قائلاً: «ما هذا الوداع الجميل؟».

ما كنت لأهتم بنفسي، بل كان همِّي، وجعُ المطران الذي يعاني من

تورم في رجليه وصعوبةٍ في الحركة. وأنا في هذه الحالة «العاشق الوحيد لتلقى تبعاتُ الهوى على كتفيّ». المطرانُ وحقيبتُه، وأنا وحقيبتي... وشمسية متمردة متواطئة بدورها مع الريح، رفعتُها فوق رأسه تحاولُ أن تَخطفَ نفسها مني.

بربكم كيف أستطيع أن أجرّ حقيبتين، رافعاً في الوقت نفسه شمسية فوق رأس رجل آخر، وان أرد على مكالمة هاتفية في ظلِّ مكبرات الصوت التي تبث الأناشيد، وأن أكافح للتقدم خطوة خطوة، محافظاً على دوري في تفتيش الحقائب وعرض جوازات السفر؟ حصان، أو قلْ، أيَ حيوان آخر، يجرّ عربتين بيد واحدة، والأخرى مشدودة إلى فوق، يردُّ على مكالمة هاتفية حاصراً هاتفَه بين الأُذن والكتف، هل هو إلا رجل يوحي بالجنون؟

هذه المكالمة من لبنان. فلا بد من الحديث ووصفِ المشهد للمتصل.

هذا رقم أختي هلا في الضيعة.

- ألو يَخي (يا أخي) ببوس إيدك رجاعْ عَ لبنان.

- كيفِك يختي؟ ولوْ. خمنتك حتقولي إن شاء الله بترجع بالسلامة!

- يخي، بترجّاك رجاع هلق عَ لبنان، بصرانة بنام (منام) عاطل. وتخنقها غصّةٌ، ثم تنفجر ببكاء مسموع... وأصمت متفهماً عواطفها.

بعد برهة...

- ألو، يخي أنا أختك هُتاف... كيفك يخي، «شو بدك بهالخوتة»...

الله يقوِّيك، تروح وترجع بالسلامة.

- هلا: ألو يا هاني ما تِحرقلي قلبي رجاع عَ لبنان.

- ولوْ يختي.. معي ناس شو حَيقولولوا عني إذا رجعت؟

- شو ما قالوا ببوس إيدك رجاع.

- طيب يختي، خليني وصِّل المطران كبوجي عالسفينة واعتذر منو ومن الشباب، وقلّهن إنّو إختي ما خلّتني سافر!

ما إن أدركت هلا لهجتي والمضمون، وأني لن «اسمع الكلمة»، حتى تركت الهاتف إلى دموعها، ومن ثمّ إلى صهري الواقعي «حسن» الذي قال:«تروح وترجع بالسلامة».

* * *

كنا لا نزال في مؤخرة الحشـود قبل أن يتعرَّف مسـؤول من لجنة التشـريفات إلى المطران، ويصطحبَه بطريق جانبي إلى مدخل السـفينة، فأستفيدُ من حُظوة وجودي إلى جانبه، لنكونَ من أوائل الداخلين إلى «جنة» سفينة «مرمرة».

ما أن تصل إلى السـفينة حتى تشـعر براحة نفسـية بالغة، وكأنك قطعت نصف المسافة براً إلى غزّة.

كانـت السـفينة مدينـةً مقسـمة إلـى عـدة «مقاطعات» فجـاء توزيع الـركاب علـى مقصوراتهـا بحسـب توقيـت دخولنا إليها، دون تمييز بين شخص وآخر.

بالمقارنة مع «سفينة الأخوّة» القديمة العهد، فإنّ سفينة «مرمرة» هي «قصر مُنيف» في عرض البحر. كانت «سفينة الأخوة» مخصصةً لشحن البضائع فحسب، أما هذه، فهي سفينة سياحية، استوعبت واتسعت لما يقارب سـبعماية ناشـط. وكان من حظي أن أكون في المقصورة نفسـها مع الشـيخ رائد صلاح رئيس الحركة الإسـلامية داخل الخط الأخضر في فلسـطين، تلك الشـخصية المَّميزة التي سـجلت الرقم القياسـي في الدخول إلى سجن الاحتلال والخروج منه. صافحتُه و«حمّلته جميلَ» أننا نعتصم لأجله في بيروت، وأنه كان «يرهقنا» لدى كل اعتقال يتعرّض له من أجل القدس.

وصلـت «مرمـرة» إلـى الميـنـاء قبْلنـا فانتظَرتْنا، أمّا السـفن الأخرى

فانتظرناها. سـفينة الشـهيدة راشـيل كوري وسـفينة شحنٍ محملةٌ بأربعة آلاف طن من مواد البناء، كان رجال أعمال جزائريون قد اشتروها من تركيا وسفينة كويتية جُمعت حمولتُها من تبرعات شعبية. وسفينة أخرى تحمل الاسم «8000» وهو رقم كتب بخط كبير على طول السفينة في إشـارة إلى عدد الأسـرى المعتقلين لدى قوات الاحتلال. أمّا السـفن الثـلاث الأخـرى التـي تحمـل نوابـاً أجانبَ وناشـطينَ في مجال حقوق الإنسان، فقد تأخر وصولها إلى ما بعد التاسعة ليلاً.

كان الانتظار ثقيلاً وموْحشاً وسرعان ما خفَّفه وأضفى عليه مسحة من الأُنس والفضول، هو تمايُلُ السفينتين الأخريين قربنا، والتفافُهما بين الحين والآخر من حولنا، كعقد فريد طوّق عنق شابة في ليلة زفافها.

تـدرك «الشـابة» أن «عقدهـا الفريـد» ينقصُه بعض حبات اللؤلؤ... لكنها مطمئنة. فالعقد يزيِّن عنقها دون غيرها، وهي موعودة باستكمال الحبّـات قبـل حضـور المدعويـن. يطول الانتظـار تلهفاً وصبراً وتحديقاً في الساعات، وتطلّ من البعيد البعيد أنوار «اللؤلؤ» كأنها خارجة لتوها من أعماق البحر، تقترب بخطى وئيدة، مرسـلةً أضواء خافتةً هامسـة، كأنفاس حبيب لا يحسّ بها إلا الحبيب.

«مافي مرمرة» هي القائدة بحجمها، وعديد ركابها، وهوّيتها التركية. فيها مركز القيادة ومركز الإعلام.

تنطلـق السـفن عـادة ببـطء... ولولا رؤيتُنا للقبطـان «يحرّرها» من قيدها في الميناء لما أدركنا أن سفينتنا تتثاءب.

وعلى بُعد آلاف الأمتار تحركت السـفن الأخرى بموازاة الأولى.

كم وددنا لو يضيقُ البحر فنتصافحَ.

اختـار النشـطاء لحملتهـم قيـادة مـن 12 مندوبـاً، مثَّـل العربَ فيها مندوبـون مـن مصـر والجزائـر ولبنان. وسَـلَّمتْ القيادةُ رئاسـتها لرئيس مؤسسـات الإغاثة الانسـانية التركية IHH. السـيد **بولنت يلدريم**. رجل قليـلُ الـكلام، كثيـرُ الحركـة بعينيـه. اتفـق الجميـع علـى إعطائه الكلمة الأخيرة والقرار الأخير في كل صغيرة وكبيرة.

جمع غفير من الرجال، «يطلبون يدَ عروس واحدة»، يرحلون بعيداً، محْمولين بأهلهم وأحبتهم والدعاء. محمّلَين بالعشق والبخور والهدايا النفيسة، كرمى لعروس يكاد يقتلها التلهّف للوصال. اليوم تُزفّ عروس في السجن صارخةً من وراء القضبان وا حبيباه... فيجيبها الحبيب ها أنذا.. لبيكِ.

* * *

تدير السفينة ظهرها لليابسة، وأنأى عن الجموع «المهتاجة» تيمناً وفرحاً بالإنطلاق، لأسأل نفسي عن «الاستدارة التركية» نحو فلسطين. هذه «التركيا» هي بالنسبة لنل كالسفرجلة، مع كلّ قصّة غصَّة. تحتضن قاعدة «أنجرليك» العسكرية الأميركية، وتفتعل حكوماتها السابقة بين الحين والآخر مشكلة مياه مع سوريا، فيتقدم رئيس وزرائها مسعود يلماظ أواخر التسعينات إلى الحدود السورية مصرحاً: «**أن جيشنا يستطيع الوصول إلى دمشق خلال ساعات**». تقيم أوسع وأعمق العلاقات من كل لون وصنف، مع إسرائيل. هذه «التركيا» منعتني من دخول أراضيها يوم تطوّعت مع مجموعة من المحامين اللبنانيين للدفاع عن المعتقل لديها، / كحق إنساني له/ ، الزعيم الكردي عبد الله أوجلان.

ولكي لا «يضبطني» أحد متلبساً بالتشكيك وأنا على متن سفينة تركية، أسائل نفسي: لماذا كل هذه القسوة عليها بعد جملة من المواقف والتحوّلات اتخذَتْها...؟ وفي حمأة التشويش والارتباك الذهني، وحتى لا يتّهمني أحد بأني قد أخذتني الحال فانقلبتُ وصرتُ من «أنصار» تركيا أجبت: «لقد قست تركيا بنفسها على نفسها، حين تخلت عن دورها في القيادة المشرقية الاسلامية. تخلت عن الأداة الأولى للقيادة، **وهي الحرف**. تخلت تركيا المسلمة عن الكتابة بالحرف العربي، حرف **اللغة الذي أنزل به القرآن عربياً**. غيرتْ لسانها والقلم ولغة الصلاة، حتى إذا جاء **عدنان مندريس** ليصلح ما كان معوجّاً يكون مصيره الإعدام.

هل تركيا بلد غربي؟ أما كان أجدرُ بها وأجدى لها ان تكون

آسيوية واوروبية في آن، بدل ان تَلبِس القِناع الغربي؟

إذا كانت لم تَحْفل بغضبنا، فلماذا تُغضبُ شعبها وتسبحُ في فضاء معدوم الجاذبية المشرقية؟

لماذا يقول الكاتب والفيلسوف التركي **رظا توفيق**: «**لقد كانت تركيا أولَ دولة في الشرق، فجعل منها مصطفى كمال أتاتورك آخر دولة في الغرب**»؟ ثم يترك الكاتبُ اسطنبولَ إمتعاضاً، ليتمشرق ويستوطن في منزل متواضع في ضاحية مدينة انطلياس اللبنانية.

لم تكن هذه الأسئلة نكأً لجراح الماضي بقدر ما هي تطلّع نحو المستقبل، «ورغبة مني في فتح حوارٍ جديد معها».

لا أعرف كيف اجتاحتني هذه الأسئلة، بعد أن رأيت النشطاء الأتراك الممثلين لثمانين محافظة وقضاء وناحية. وبعد أن بدأتُ بالتحرر منها يوم قَبِلتْ تركيا إِستضافة «**ملتقى القدس العالمي**» أواخر سنة 2007. الذي ترأس لجنته التحضيرية الأخ والصديق الدائم **معن بشور**. خمسة آلاف مندوب وناشط سياسي من ستين دولة، هتفوا في اسطنبول لفلسطين ووضعوا الخطط والبرامج للحفاظ على هوّية القدس. ولا أدري كيف أحييتُ سلبيتي بعد أن كنت قد استكملتُ راحتي النفسية تجاهها حين تبنَّت تركيا فكرة «أسطول الحرية» التي حملناها إلى مؤتمر نصرة غزّة وحملها معنا إلى اسطنبول، أخ آخرُ عزيزٌ من الجزائر هو السيد **عبد الكريم رزقي** المسؤول البارز في وفد الجزائر في هذه الرحلة، وفي رحلات أخرى.

غابت مصر الرسمية... فحضرت تركيا. قلت لنفسي. وتساءلت

كما غيري، هل عادت نهائياً، هل إستفاق تنّينها كما كان يتمنى الشهيد ياسر عرفات، أم هي نصفُ استدارة والحذر واجب؟

* * *

خليطاً من البشر، أجناساً وأعراقاً وأعماراً كانوا.

يزيّن لقاءنا على السفينة، عدد من الناشطين اليهود «**المعترضين على سلوك إسرائيل**»، آثروا أن يكتبوا على صدورهم «**نحن يهود، ولسنا صهاينة**».

منذ عقود... وأنا أدقق بظاهرة الأجانب المتعاطفين مع قضية فلسطين. كنت كلّما رأيت رجلاً أشقرَ في مكاتب الثورة الفلسطينية، أقول: هذا أوروبيّ فأرتاب فيه. كنت أخشى تعاطف بعضهم، وأقول: «ربما هم جواسيس». أما على السفينة فتصالحتُ مع نفسي: «ما دمتَ تعتقدُ بعالمية قضية فلسطين، فيجبُ أن تتقبّلَ مناضلين أمميين إلى جانبك حتى لو كانوا يهوداً». وسرعان ما يلفتك التاريخ إلى الحوادث التي انكشف فيها «المتعاطفون» عن جواسيسَ، ويعودُ بك الذهنُ إلى اغتيال القائد الفلسطيني البارز خليل الوزير حيث لعبتْ كما يروى، جاسوسة سويدية دورَ صحافية متعاطفة مع الشعب الفلسطيني، فزارت «**أبا جهاد**» في مقر إقامته في تونس عدة مرات لتدرس طبيعة المكان، وترفعَ تقريراً إلى الموساد، الأمر الذي أدى إلى استشهاد أشهر فرسان الثورة ومخططيها. ويعود بك الذهن أيضاً إلى دور وزيرة الخارجية الإسرائيلية **تسيفي ليفني** التي ساهمت في قتل قائد فلسطيني بارز.

تقترب مني إمرأة سبعينية شقراءُ وتسألني سؤالاً عابراً، ليمتد الحديث وأعرفَ أنها ناجية من المحرقة النازية، فيأخذني الحَرَجُ والشرود في آن... أتساءل: «هل هي تسيبي ليفني أخرى»؟ أو أن

(تسيبي) نفسَها أصبحت ختيارة إلى هذا الحد...؟ وما أنقذني من الحديث معها، هو عدم إجادتي اللغةَ الإنكليزية، لأستنجدَ بزميلي في الرحلة نبيل الحلاق، ابن بيروت العزيزة حامل الجنسية الإيرلندية، وأخلدَ إلى نفسي متسائلاً:

هل صحيح أنها ناجية من المحرقة...؟ فقانون الشك يجب أن يبقى سارياً.

تنتشلني من هذه الأفكار المبرّرة، حادثة مقتل الناشطة الأميركية «راشيل كوري» التي قضت تحت الجرافة الإسرائيلية وهي تتصدّى لها لمنعها من هدم بيوت الغزّاويين، فأُجري تسوية ظرفية داخلية، مؤجلاً حسم هذه المعضلة في تفاصيل الصراع التاريخي الدامي بيننا وبين المشروع الصهيوني. أنتحي جانباً لأخوض مع نفسي حواراً فكرياً ونفسياً، حول الشعور بالمظلومية في توحيدها للبشر في لحظات أو مناسبات محدّدة، لأجدَ تبريراً لوجودنا المشترك مع يهود في مهمة إنسانية استثنائية.

كان جناح الوقت يميل نحو الفجر حين «استأذنني» النعاس، عارضاً عليَّ السكون، فأُلبِّي طائعاً وأتوجّه إلى مكاني المخصص للنوم، لأجدَه مشغولاً من غيري، فأتدبر امري كيفما اتفق.

الحقائب أكثر من البشر عدداً وحجماً، ومن حق كل منها أن تحتل مقعداً و«تُنازعَ» صاحبه على النوم في مكان مناسب. وعند تنازعِ الحقوق، فالأشياء لها حقوق أيضاً.

عندما تضعك المناسبة على متن «سفينة عالمية»، تحاول أن تتكافأ مع هذا الحدث لتجمع أكبر عدد من الصداقات والمعارف والمعلومات. فأنت لا تنفرد بهذا الشعور فحسب، وقد لمستُ هذه الرغبة عند كلّ

واحد من الناشطين.

وأنا، ساعياً للقاء أحدهم... أجدُني هدفاً لأناس آخرين يتجهون نحوي يحدوهم هذا الفضول.

تعرف أناساً بالاسم، وتعرف آخرينَ بالشَبه. يتقدّم أحدهم معرّفاً عن نفسه، وما إن يلحظ المطرانَ حتى ينصرف عنك نحو الأشهر والأعلم، فالمصافحة والتبرّك به وأخْذُ الصورة معه جزءٌ من «المهمة النبيلة» عند هذا الفضولي. وما إن يتعرّف أحد إليك ويعرف من أنت، حتى يطوِّقك بالسؤال عن تجربتك في محاولة كسر الحصار. أرجوك حدثنا... وبالرغم من متسع الوقت للحديث في رحلة بحرية، فقد كان الوقتُ ضيقاً إلى حدود المحاصرة.

مهمة تخصيص المطران بغرفة مستقلة كانت كمهمة الباحث في منْجم عن درّة نادرة. السفينة مقسمة إلى مقصورات، تتّسع كلّ منها لما يقارب المائة. هو يريد أن يستقلَّ ليخلوَ إلى نفسه وللصلاة. لا غرفة مستقلة إلا غرفة مساعد القبطان في الطابق السفلي الخامس، أخلاها من حوائجه كرمى لعيون «الشيخ الجليل».

هي غرفة أشبه بالسجن الانفرادي، حارة جداً، تفتقر لتهويةٍ تنعش ساكنَها. تنزل إليها بأدراج حديدية شديدة الانحدار متعرّجةٍ من طابق إلى طابق. الدرج ضيق جداً، لا يتسع إلا لشخص واحد، فكيف تستطيع مساعدة هذا «الشاب» التسعيني على النزول وهو بالكاد يستطيع التحرّك على رجليه المتورمتين، وقد آثر أن «يختم جراحه» بيديه ليفتتح رحلة طويلة جديدة في مسار رحلته الطويلة القديمة.

من الطابق السفلي الخامس إلى الطابق العلوي، حيث الصحافة

والإجتماعات، وتناول الوجبات. رحلة طويلة تنهك الشبابَ المتوثب، فكيف برجل قد بلغ من العمر عتِّياً، يجهد نفسه على مدار اليوم، ليضفي على هذه الرحلة بعداً إضافياً، ونكهة خاصة ورمزية بالغة.

تحوّلت مهمتي من مجرد مشارك في رحلة كسر الحصار، إلى مُرافق أيضاً للمطران لإعانته مخافة التعثّر والسقوط، وقد حالفني الحظ للتوفيق بين المهمتين، فأديت مهمتي كمرافق بنجاح، فلم أوفر اجتماعاً أو حلقة متلفزة إلا ودعوته للاشتراك فيها.

بسبب الألم والتورّم في رجليه، كنت أرجوه كي أساعده بغسلهما بالماء الساخن والصابون، علّ في ذلك تسكيناً للألم. كنت ألحّ وأستجدي... وكان يرفضْ ويبتسم... لأنتهي إلى سؤاله:» لماذا تحرمني من إحدى صفات السيد المسيح (ع) الذي كان يغسل أرجل تلامذته، ألا تريد أن تعترف بأنك من تلامذتي...؟» فيضحك ويضحك... ويصمت.

كان «دوامي» معه يبدأ عند التاسعة صباحاً، أقصدُ غرفته لاصطحابه إلى أعلى السفينة بعد أن يكون قد أنهى صلاته الصباحية المعتادة. وكان حين وصولي إليه، يبدأ برش العطر على جسده وفي أرجاء الغرفة، ويزودني ببعض منه، فأشكره قائلاً: «يا سيادة المطران، بعد معايشتي لك في هذه الرحلة تبيّن لي أنك خواجة وشاب آدمي». تأتي هذه الجملة المازحة كسلك كهربائي خفيف يخترق يديه فيرفعهما إلى الأعلى، يضمهما إلى بعض، ويغيب في ضحكة ربانية مجلجلة.

رفقة المطران أكثر من متعة، وأعظم من أن تعدَّ فوائدها.

* * *

كانت السـفينة أشـبهَ بقاعة اجتماعات. ما إن ينفضّ اجتماع حتى ينعقد آخر. أعضاء الوفود من كل دولة ينسِّقون أعمالهم، وغرفة الصحافة كتيبة إعلامية متقدمة، بل هي رادار متطوّر يتلقى الإشـارات، ويرسـلها فنسيرُ على هَديها.

كانت أنباء التظاهرات العالمية المواكبة للرحلة قد ملأت «حنايا» السفينة، فانشغلنا بها حتى كدنا ننسى نظراءنا في السفن الأخرى. كان الجمع مقسوماً بين سؤالين: متى نصل؟ هل سنصل؟

أتدخّـل شـارحاً تجربتـي الأولـى، مؤكـداً أننـا لا نـزال فـي المياه الدولية، وأن إسـرائيل ستخسـر إن هي اعترضتنا الآن. سـوف تنتظرنا حتى ندخلَ المياهَ الإقليمية الفلسطينية، عندها ستجد المبرّر «القانوني» لاعتراضنا.

أعترف أن التجربة مع عدو كهذا لا تفضي بالضرورة إلى استنتاج أكيد حول ما ستؤول إليه الأمور. فبالرغم من قراءتي المسبقة لحصول المجزرة وأنا في تركيا، ومما استنتجته من كتاب **محمد ابراهيم كامل** عـن طبيعـة إسـرائيل العدوانيـة، ومما اسـتنتجته مـن «المقالة التي هزت العالـم» لسـتيفن والـت وجـون ميرشـايمر، وبالرغم مـن معرفتي بتاريخ الحركة الصهيونية وعراقتها بقتل الأسرى. بالرغم من كل ذلك، أعترف أني «عيَّشت» نفسي على بعض الآمال بالوصول والدخول إلى غزّة..

أعتـرف، أنـي أخطـأت فـي فهـم طبيعـة إسـرائيل مـرة أخرى، حين قلت انها لن تعتدي على الأسـطول خشـية الإحراج الدولي، وأنها كل ما يمكن أن تفعله هو أن تحاصر السـفن وتقطرَها إلى ميناء «أشـدود»، وهناك وبمعزل عن الإعلام، سيجري إعتقالنا دون سفك دماء، فتصيب عدة عصافير بحجر واحد. وأعترف أني قبلتُ مجازاً تشبيه أبي الشهداء محمد شكر لقائد الرحلة بولنت يلدريم، «**بفاتح الأندلس طارق بن زياد**».

أعترف أنني نسـيت ما كتبته في قصتي عن الرحلة الأولى «**غزّة فـي مرمـى البصـر**»، حيـث كنـت أردد قبل الانطلاق: «إن إسـرائيل لن تنتظرنا حتى ندخل مياه فلسطين، بل ستعترضنا عند خروجنا من ميناء طرابلس».

أعتـرف أنـي نسـيت مـا قالـه لـي «جازمـاً» ابـن عمـي سـلطان سليمان: «**سنستقبلكم على معبر الناقورة أسرى محررين بعد عدة أيام**».

أعتـرف أن كُتّابنـا وباحثينـا ونشـطاءنا وأنـا منهم، بـالإذن من نخبة قليلـة، ربمـا، لـم يقـرأوا مـا يكفي عـن طبيعة الكيـان الصهيوني، فصح فينا قول موشـي دايان سـنة 1967، «**إن العرب لا يقرأون**». وأن أطنان الكتـب والوثائـق عـن طبيعـة هـذا الكيـان لا تعـادل جملـة واحدة قالها رئيس الأركان الإسرائيلي غابي أشكنازي، أمام لجنة «تيركل» الصهيونية التي تولت «التحقيق» الصوري بالاعتداء على الأسطول، حيث اعترف اشكنازي بأن الخطأ في عملية الإنزال كان ناشئاً عن عدم قتل عدد كبير من «الإرهابيين» قبل نزول الجنود إلى السـفينة، بهدف إرباك النشـطاء وشلّ حركتهم.

* * *

لا تشعر بإبحار السفينة إلا حين تخرجُ إلى الشرفة... ليل داجٍ، وصوت احتكاك السفينة بماء البحر، كبحّة حنجرة يجرِّحها السعال. العالم القريب من حولنا يلّفه السكون والعتمة، موشحٌ بزبدٍ أبيضَ... هو الطريق وراء السفينة، فماذا عن الطريق أمامها؟

وفي لحظات متثاقلات، تنزاح «برادي شباك» العالم، لتفترَّ عن أنوار خافتة، تسبح مثقلةً باتجاهنا كأنّها تحدد لنا موقعنا في البحر. ومع الوقت، تتصل هذه الأنوار ببعضها، كعيون هررة تلمع في الظلام.

هل هو الساحل السوري أم اللبناني، أم نحن بمحاذاة قبرص؟ هل أصبحنا في مرأى البحرية الاسرائيلية ومرماها؟

لقد دخلنا دائرة الضوء يا شباب... فلم نعد لوحدنا في البحر، هناك من يقاسمنا السيطرة عليه. وبسببٍ من بُعْدِ المسافة، لم نستطع أن نقدر هل أن السفن تقترب أم تبتعد. ينطفئ لهيب شعورنا حين يُعلمنا القبطانُ أن السفن الأخرى في «أسطول الحرية» هي التي تقاسمنا السيطرة على الليل والبحر والرحلة والهدف.

حين أفتقدُ المطران لساعات كنت أهرع إلى غرفته، وأجلس صامتاً حتى ينتهي من الصلاة. كنت في الرحلة الأولى إلى غزّة مشاركاً في كلّ صلاة وراءه، وكان يقول لنا: «**يكفيني أن تقفوا بجانبي أو ورائي وأن ترددوا الدعاء**».

يعتقد هذا الرجل أنّه بقدر ما هو يصلِّي فإنّ الله يستجيب. وحين كان يسألني عن إمكانية دخول غزّة وأجيبه «**سندخل بالتأكيد، ولكن بدنا نصلي**»، كان يهرع إلى طاولته ويحضّر الشموع والنبيذ وبعض

كسرات الخبز للمناولة بعد الصلاة. لكن... كيف أستحق المناولة وأنا لم أشترك بها؟

طالما كانت تراودني فكرة. لماذا لا يشارك المطران جموعَ المسلمين في صلاتهم، وهو الذي يقول ويردد: «**الصلاة عند المؤمنين واحدة، وإنْ بتعابير مختلفة**».

وكنت أقول في داخلي: صلاةٌ فوق وصلاةٌ تحت، ألا يمكن توحيدُ الصلاة في الزمان والمكان فيصبح تضرّعنا أقربَ للاستجابة من الله؟

كانت علاقتي بالمطران تتوطد مع كلّ جلسة أو لقاء، لدرجة أنه كان يرتاح لبعض الممازحات الخفيفة والفكاهات التي ألقيها عليه. هو منفتح ومحاور، فلماذا لا أفاتحه بإمكانية الصلاة المشتركة مع المسلمين، وفيهم رجالُ دين ورجال تُقى مُحبون له، ولا يفتأون يمجِّدون السيد المسيح (ع) ويتلون آياتٍ وسُوَراً تتحدث عن السيدة البتول مريم العذراء.

احتراماً وتحسباً، تجنّبت مفاتحته بصلاة يَظهر فيها وكأنه يلتحق بالمسلمين ويصلي صلاتَهم. كان «الحوار بيننا» حول هذا الأمر يدور صامتاً. كلانا كان يفكر بصوت داخلي.

ولبرهة وجيزة، يلتفت إليّ ويقول بلهجة فلسطينية معهودة: «يا أخي هاني بدي أَصَلّي مع إخواني المسلمين حين يحين الغروب أو موعد العشاء، تعال إليّ لنصعد ونصلي سوية». لم أُبْدِ ترحيباً لافتاً... وتعمّدت إعتبار هذه الرغبة من مستحبّات الرحلة.

نقلت رغبة المطران إلى أركان السفينة فرحبوا بها، مع تحفظ

خجول، مقرون بالتساؤل: هل يجوز لمسيحي ان يصلّي مع المسلمين؟ ليأتـي الجـواب قاطعـاً: نعـم، كان الرسـول (ﷺ)، يسـتقبل النـاس فـي المسجد يسألون عن حاجاتهم، وكان إلى جانبه**عدّي بن حاتم النصراني**.

بـدأت جمـوع المصلّيـن تصطفُّ وتتراصف. توجهتُ والمطرانَ إلـى المقدمـة تحـت عدسـات الكاميـرات المبهـرة للنظر. من لم يؤدِّ الصـلاة أخـذه الفضـول فتنحـى لأخذ صورة يعتبرها تاريخية. ينضبط المصلُّـون لـدى سـماع كلمـة «**اللـه أكبـر**». يقـف المطـران خاشـعاً صامتـاً وعيـون المصليـن فـي الصفـوف الأولى موزّعـة بين الابتهال لِلّـه والإلتفـات إليـه. يحافـظ على صمتـه، حاملاً إنجيله بيديه، قارئاً مشاركاً بأحد أصغريه.

تنتهـي الصـلاة ليتقـدّم «علمانـي» مـن وفـد الأردن لتقبيـل يـد «هيلاريون»، فيعترض أحد زملائه المسلمين الملتزمين في الوفد، مؤكداً تحفّظه على هذه «الخطيئة»، ليتدخل أحد رجال الدين المسلمين قائلاً: «واللهِ، إن التبرّك به حلال، والسلام عليه أجر، وتقبيل يديه الطاهرتين ليس محرماً».

لقد أُنهـك المطران بالسـلام والأسـئلة والاسـتجوابات الصحافية، حتـى كاد ينسـى آلام رجليـه ونـدوب جروحـه فـي الصدر، فألفِتُ نظره إلى وجوب النزول للنوم، فغداً يوم حرج جداً. يسـتجيب صاغراً لتبدأ «رحلـة العـودة» الصعبـة بتعرّجات الأدراج وانحدارها الشـديد، وصولاً إلى غرفة القبطان الحارّة التي «نجوت» من مشاركة المطران فيها بحجة تجنّب ازعاجه، فالسرير في الغرفة بطابقين، وأية حركة مني قد توقظه وتفسد عليه النوم. أعود إلى سطح السفينة متمنياً له «طيب الإقامة» في

غرفة تُمرض بدل أنْ تُشفي.

* * *

في هذه الساعة يكتمل اليومان المشبَعان بالحركة والسهر. الرغبة بالنوم كبيرة، ونُواله صعب. الناشـطون مأخوذون بسـاعة الوصول إلى المياه «الموعودة». إنها الثانية عشـرة مسـاءً، وسـاعة الوصول المفترضة هي الثامنة صباحاً، فلا بأس بالخلود إلى النوم، لأن بعد الثامنة أمراً آخر.

من قال إن البحرية الإسـرائلية سـتنتظرنا حتى ذلك الوقت؟ لماذا لا نفترض أنها قد «تسـتقبلنا» في أية لحظة؟ إذاً لا بد من «سَـرقة» كَمْ ساعة نوم....لا لا... إنها ساعات حاسمة، لن أنام ولو نام أهل السفينة جميعـاً، وحتـى لـو نامـوا، فالأَوْلـى أن أبقى سـاهراً. كان حـواراً داخلياً يجـري «طـول الطريـق» مـن محـاذاة الماء في الطابق السـفلي الخامس حتى محاذاة السماء على ظهر السفينة، لأُلفيَ نفسي أمام عالم مختلف تسوده الجلبة والصخب والحماسة. في كل تلك الجموع لم «أضبط» شخصاً واحداً تراوده نفسه بالنوم، فلن أكون الاستثناء.

حلقات ودوائر. مربّعات وتجمّعات. خليط من البشر في كلّ زاوية، وكأن العـدو قـد «أبلغهـم» سـاعة الهجـوم، فراحـوا يتحضَّرون لملاقاته بطريقة «لائقة».

الأناشيد الدينية تصدح في كل ناحية، تتقاطع مع أغانٍ قوميةٍ ووطنية فلسطينية.

النائب اليمني **محمد الحزمي** متأبطاً خنجره التقليدي على وسطه، ومعتمـراً كوفيتـه اليمنيـة الشـهيرة، بصوتـه الشـجيِّ يديـر مجموعـة من المنشـدين تغنـي وترنـدح «**صلـى اللـه على محمد**». فيشـقّ صوتُه قلبيَ

لتخرجَ من عينيَّ دمعة وَجْـد دافئة.

البـكاء حالـة إنسـانية وجدانيـة تراودنـي عـادة في لحظـات الفرح، وتجتاحنـي لـدى سـماع مقـرئ مجيـد. أنشـدت مـع الفرقة وأنا أمسـح دموعـي، لألتفـت إلـى ناحيـة أخـرى فأجد «أبا الشـهداء» يصدح بأغنية «بـلادي بـلادي... لـك حبـي وفـؤادي» ومن ثـمّ ليكمل دون توقف مع أغنية «والله زمان يا سلاحي».

- يا أبو محمد مش حافظ الغنِّية وبدك تغنيها؟

- دخيلك يا أسـتاذ أنا عايش في كندا، ومن زمان... ما سـمِعت هالغنِّيـة ولا غنّيتهـا. سـبحان اللـه كيـف «إجـت عا بالـي». أكتبلي إياها بدي غنِّيها للصبح.

أمـا الشـيخ رائـد صـلاح فـكان قد نظم قصيدة مـن اربعين بيتاً من وحيِ المناسبة بعنوان «يـا شـامُ» أقتطعُ بعضاً منها.

يـا شـام أبشـر يا عرين الأسد يا حصن الهمام

أبشـر فقـد صـاح المـؤذن بالملايـن النيـام

يا شـام هلاّ «**عَيْن جالـوت**» تعود فـلا نضـام

يا شـام فيك الخير كان ولـم يزل أنـت الهمـام

يا شـام أنت لعصبة الأحرار صـوت الانتقـام

هي السـاعة الواحدة صباحاً، والأعصاب المشـدودة لا تلغي ثِقلَ الجفـون. أتذكـر ابنـي أدهـم وأضحـك... كان طفـلاً في السادسـة حين ذهبـت بـه مـع أمـه إلـى أحـد المنتجعـات في مدينة «كسـب» السـورية المحاذية للحدود التركية. من شـدة انبهاره بما حولَهُ من مناظرَ جميلة

كان كذَكر النحل، وكان نهاره حركة متواصلة، لعباً وسباحة، فما تكاد الشمس تستأذن للمغادرة حتى «ينطفئ» الصبي من التعب.

كنـت قبـل انهيـاره بلحظـات أخـوض مع أمه «مناورة» اسـتدراجه للنوم. هو منهك فعلاً لكنه يخشى إفلاتَ لحظةِ يقظةٍ منه. ومع إلحاحي عليه كان يقفل قبضتيه بعصبية تُدخل أظافرَه بلحم يدهِ الطري، ويحاول فتح عينيه بغريزة طفولية صائحاً مردداً بصوت عالٍ: مش قادر ناااام... مش قادر ناااام لحظات... ويغرق في بحر النوم، وأقول مبتسماً: «نوم الظالم عبادة».

مـا هـذه المصادفـةُ، أنـا فـي نفس المكان مـن البحر ذاته تقريباً !؟ حالتـي اليـومَ تشـبه حالـة ولدي بالأمـس، وولدي بالأمس هو أنا اليوم، أنا عاجز عن السهر، ولست بقادر على النوم... وبعد أن أصرخ، «مش قادر نام» تنحل أعصابي وأغور في لجة عميقة، أستفيق بعدها على «هزّة أرضية» فأُلفي جسـمي يتحرّك ذات اليمين وذات الشـمال، وإذ بجاري الشيخ رائد صلاح واقفٌ فوق رأسي يبتسم وقد انتهى لتوّه من إيقاظي من سبات عميق، مريح لي ومزعج للجوار، بسبب الشخير الناشئ عن النوم مُعْوجَّاً بين الحقائب.

«هزّة أرضية» في البحر... نعم. ربما هي إرهاصةٌ لهزّة بحرية بعد سـاعة تماماً سـتغلي بها الدماء في العروق، وتختلط سـواقيها ببعضها، محدثةً بحيراتٍ حمراء متصلة، وجداولَ متسرّبة من سطح السفينة إلى عمق البحر المتوسـط، فتحوِّل «بياضه» إلى لون يشـبه لون غضب الله على القوم الظالمين.

تجمَّع المصلون وتراصفوا لصلاة الفجر، كانوا يَنْشُدونَ نورَ الله،

وإذا بأنوار شيطانية تتقدم. من عادة الشياطين أن تحضر بسرعة، لكن «أنوارهم» كانت تتقدّم ببطء شديد. لم يعد من مجال للتأويل. لقد أتوا «لاستقبالنا» ومن واجبنا «ملاقاتهم». وبين السجود والوقوف، كان المصلُّون يسابقون الوقت. وأقول في نفسي، هل يجوز ترك الصلاة والتحرك؟ لأجيب: «كم من الخلفاء والأئمة والمؤمنين قضوا أثناء الصلاة».

من لم يؤدِّ الصلاة توجّه إلى موقع يتدبّر أمره فيه، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولا.

الحمد لله على نعمته، فقد انتهت الصلاة قبل حصول المقدّر.

* * *

إنها الساعة الثانية صباحاً. يتقدم «طارق بن زياد» التركي ويمسك بالمذياع معلناً المرحلة الأولى من المواجهة: **لقد اتصلتِ البحرية الاسرائيلية بقبطان السفينةِ واستعْلَمت عن هويتها ومهمتها، وإنصرفت.**

يتوقف الإنشاد والغناء في الجانب الآخر من السفينة ويلتفّ الجمع حول «طارق» مستفسراً عن معنى هذا التدبير.

هي التجربة الثانية عندي، وهي الأولى عند رفقائي، ما عدا قلة منهم شاركت في رحلات سابقة، فهم يحتاجون فيها لمعرفة كل شيء، فيأخذهم الفضول إلى اقتراح خطوات «مرّ عليها الزمن» بعد أن انصرف العدو من دائرة الإتصال والتأثير.

هل انصرفوا فعلاً؟ ألمْ يطلبوا من القبطان أن يعودَ من حيت أتى؟ ألم يهددوه بإغراق السفينة إن لم يمتثل كما فعلوا معنا في السابق؟ لماذا لم يواكبونا ولم يقتربوا لمئات الأمتار كما في السابق، لماذا لم يسلطوا الأنوار الكاشفة علينا، فيبهروا عيوننا ويُعموا أبصارنا؟

لم يستغرق إستحضار التجربة وإعادة شريط الذاكرة سوى لحظات، حتى أُلفيَ نفسي في الأجواء والمناخات السابقة، المواكبة للأغاني والأناشيد، وكأنها - وكانت كذلك بالفعل - قد جاءت باعتبارها الردّ النفسي على هذا التحدّي. ويتحلق جمع من الناس حولي وقد قرأ بعضهم «قصة» الرحلة الأولى والمواجهة التي جرت فيها، ليقولوا ماذا بعد...؟

لا يزال «الخطأ المميت» الغافل عن التجربة السابقة يغلف ذهني الشارد، «فأبلغهم» ان المواجهة مؤجلةٌ لساعات، ستكون المعركة صباحيةً لحظةَ دخولنا إلى المياه الإقليمية الفلسطينية.

لدى البحث في كيفية المواجهة، كانت قيادة الرحلة تؤكد علينا ضرورة الالتزام بالتنظيم ورباطة الجأش وعدم التسرّع، وكانت تردد أن مهمتنا مهمة سلمية.

عشرات من الشباب الأتراك زنَّروا سطح الباخرة بأجسادهم، يبعد واحدهم عن الآخر ثلاثة أمتار، ومن الاتجاهات الأربعة، أصبحت الباخرة «بالحفظ والصون». أما في الطوابق الأخرى فكانت خراطيم المياه تعمل بكل اتجاه لمنع سفن العدو من الاقتراب، ومنع الجنود من التسلق على السفينة. تقترب بارجة حربية كبرى، قيل إنها لم تستخدم منذ حرب تشرين الأول / اوكتوبر/ 1973، فتَخرجُ من بطنها كفئران المطبخ، عشراتُ الطرادات المطاطية، يحمل كل واحد منها عشرةً إلى خمسةَ عشرَ رجلاً وإمرأةً، تنطلق في غير اتجاه، لتطويق السفينة من كل جانب.

صمتٌ مطبقٌ وحبسُ أنفاس لا يوصف. هدوء مدروس، والتزام بالتعليمات جرى تأكيده طوال الرحلة. كلٌّ في مكانه لا يبرحه مهما استدعت الحاجة. تَقَاطُع نظراتٍ في كل اتجاه كأنها سيوف تلمع. سُترات النجاة الصُفر التي تدربنا على استعمالها مع صافراتها عند طلب النجدة في الماء، وحّدت الجموع مظهراً وروحاً وزادت التماهي بينهم، بحيث لا تُميّز شخصاً عن آخرَ إلا من وجهه. زمام المبادرة ليس بأيدينا، باستثناء خراطيم المياه التي فتحت «نيرانها» على المهاجمين قبل استقبال النار.

كان وصول الطائرات المروحية إيذاناً بفتح النار.

وفـي الرابعـة مـن فجـر يـوم الإثنيـن الواقع فـي الأول من حزيران / يوليـو/ 2010 انفتحـت فوهـات الجحيـم علـى أناس «قرروا أن يلاقوا ربهم»، متَحدِّين آلة القتل الإسرائيلية.

أشهد أن إطلاق النار لم يكن عشوائياً، لدرجة أن العدو لم يخسر طلقـة واحـدة خائبـة. ولكـي أكـون «منصفاً»، أشـهد أن القنابل الدخانية الكثيرة والكثيفة لم تقتل أحداً، ولم تجرح إلا منْ أصابَتْه تلك القنابل مباشرة.

ترافق إطلاق النار هذا، مع الإنزال قرب صارية السـفينة. طائرة تحمي طائرة، حبال تتدلى، ورجال مزودون ببنادقَ وخوذاتٍ حديدية وأقنعة سوداء تخفي الوجوه لدرجة أنك لا تميّز الرجل من المرأة.

مُقابـل اللـون الإسـرائيلي الواحـد، كانـت السـفينة «قلعـة مدججة بالتنـوع»، وكانـت الألـوان المتعـددة تطغـى بمسـاحتها ومضمونها على سـاحة المعركـة. رجـال ونسـاء مـن كل اتجاهـات الريـح. مسـلمون ومسـيحيون ويهـود، يصـاب بعضهـم فُـرادى فينزفـون مجتمعيـن. قبالةَ البنـادق أفئـدة لا يخترقهـا الرصـاص، وبمواجهة الأقنعة السـوداء وجوه ناضحة مشـرقة. ومقابل الهمهمات المبهماتِ أصواتٌ واضحة مفهومةُ المعنى.

لا يمكن تصوُّر معركة حربية على ظهر سـفينة أو في باطنها، إلا وتتخللها أصوات أو صراخ أو استغاثات. لم يستغث جريح، ولم يتأوه مصاب ولم يرتعد ناشط. وأشهد أني لم أسمع سوى كلمة «الله أكبر»،

تخـرج مـن فـم مصـاب أو مدافـع أو متحـرّك على ظهر السـفينة. كأنما صيحة «الله أكبر» كانت كلمةَ السر المعتمدة للتعامل في ما بين الناس.

كنت في الطابق العلوي من السفينة، على بعد عشرات الأمتار من صاريها حيث الإنزال. لم تُعهد إليَّ أية مهمة «عسكرية» تتعدى صفتي كمشارك مدني، وحسب علمي، لم تُعهد لأي ناشط آخرَ أيةُ مهمةٍ سوى الدفاع السلمي عن مهمة الإبحار لكسر الحصار.

قـال قائـد الأسـطول «بولنـد» للعـرب المشـاركين: «لقـد شـاغلتم إسرائيل عشرات السنين، فاتركوا لنا شرف هذه المهمة في هذه الرحلة».

من طبيعتي الفضولية... أتحرّك صوب موقع الإنزال لأرى جنوداً نزعت منهم بنادقهم وكُبِّلوا بحبال رفيعة، ورُكنوا في عتبة الدرج الفاصل بيـن الطابـق العلـوي والطابـق الـذي تحته. ولقد تَـركَ المدافعون هؤلاء الأسرى لخيبتهم، وتفرغوا لأسر جنود آخرين كانوا يتحضّرون للإنزال.

أعود أدراجي لأحمد الله أن الناشطين، وكانوا «كثرة على قلّة»، لم يتعرَّضوا للأسـرى بعنف يتجاوز مهمة الدفاع عن النفس، فلا قتلٌ ولا تعذيب. وفي يقيني أنه لولا الحلمُ ورباطةُ الجأشِ والتنظيمُ المدروس، لاسـتغلّت اسـرائيل الحدثَ أيّما اسـتغلال، لتقول للعالم أجمع: هاكم النشـطاء «المسـالمون» يعتدون على حياةْ الأسـرى. وأزيد في القول: لو وُجدَ على ظهر السـفينة مسـدس واحد، لجعلت إسـرائيل من نفسـها «ضحية الإرهاب العالمي»، الذي واجهته بالبوارج والزوارق والطائرات.

ولانـي كنـت مـن أوائـل المصابيـن، فقد وضعتنـي الإصابة خارج المعركـة باكـراً، ففاتتنـي تفاصيـلُ كثيرة عن الانزال والمواجهة، ورحت

أسأل منِ التقيتُهم بعد العودة عن هذه التفاصيل، لأكوّن لنفسي ولقارئي الكريم صورة شبه واضحة عن هذه الواقعة.

لـدى زيارتـي تركيـا للاحتفـال بعودة «مافي مرمرة» التقيت بصديق عزيز تعرفت عليه على متن الباخرة، السيد الجليل **سالم الفلاحات** من قيادات العمل الإسلامي في الأردن، وكان لتوه قد نشر كتاباً عن هذه الرحلة أهداني إياه، بعنوان «**أسطول الحرية: ذكريات خواطر- أحداث**».

لقد اسـتأذنته فوافق مشـكوراً، فاقتطعت وصفاً لما تضمنته قصته عن عملية الإنزال.

ولقد سـررت كثيراً من تطابق الوصفين لمجريات الأحداث بيني وبينه. يقول السيد سالم الفلاحات ص69:

«وذَكَرَ لي من أثق بقوله وهم عشـرات تَبْلغ رواياتهم حد التواتر، أنْ الطائـرة الأولـى لمّـا ألقـت الحبـل وتدلى منها، آخذه الأتراك ودفعوه بجرأة نحو الماء، وكان حاج إبراهيم بلغن الشهيد، هو من قام بذلك، مما أجبر الطائرة على المناورة من جديد، ولوأرادوا قتل هؤلاء الجنود لفعلوا، ولكنها أخلاق الإسلام وحكمة التقدير، بل قام الأطباء بمداواة جروحهم ثم تركوهم آمنين، ولقد قام الشهيد حاج فخري يلدز من مدينة «آدياما» وهو كردي من سـرت، ومعه آخر بربط حبل الطائرة بالباخرة محاوليـن إسـقاطها، لكـن مسـؤولهم حذرهـم خوفـاً من وقـوع الطائرة عليهـم وعلـى إخوانهـم، فقامـوا بفـك الحبـل، ولما ذاقـوا طعم الهزيمة قررت قيادتهم العليا استخدام الرصاص الحي، وكل أنواع البطش ثأراً لهزيمتهم، وحفاظاً على معنويات جنودهم. وهنا كانت المذبحة، فقبل الإنزال الثاني من الطائرات والقوارب العسكرية التي ملأت البحر وزادت

عن عشرين قارباً، وأبعد منها قليلاً بوارج حربية، أُطلق الرصاص على من كان على ظهر الباخرة وهم أتراك، وعلى كل من تيسر للقناصة صيده في الأدوار الأخرى من غير الأتراك كذلك>>.

أنا من جهتي «أعترف» أن السلاح الوحيد الذي كان على متن السفينة هو ذلك الخنجر الذي «يزيّن» خصر النائب اليمني محمد الحزمي، والذي يعتبر في اليمن زياً تقليدياً يؤاخي الإنسان منذ طفولته حتى مماته. وبالرغم من تردّدي سابقاً إلى «اليمن السعيد»، الحزين هذه الأيام، فإن الفضول لم يأخذْني للسؤال عما إذا كان الخنجر يدفن مع صاحبه باعتباره جزءاً منه.

اعتقدت للوهلة الأولى أن المعركة تدور في ناحية واحدة من السفينة هي حيث أنا. وخلتُ أن هذه الناحية هي ساحة المعركة الوحيدة. لقد كان انشغالي مصبوباً عليها، إلى أن رأيت أربعة أشخاص مُسرعين يحملون جريحاً من الناحية الأخرى... إذاً فالهجوم شامل. الجريح مصاب في صدره ومكان الاصابة موشوم بالأسود. هذا يعني أن الإصابة هي من مسافة قريبة، وشهب النار قد أحرقت صدر الجريح، فهم أصبحوا إذاً على ظهر السفينة يقاسموننا السيطرة عليها.

يسرع المسعفون لنجدة الجريح الذي يصرخ «لا إله إلا الله». هو يحتاج لكميات كبيرة من الدم لتعويض ما نزف. يَقْلِبون الجريح على بطنه، فإذا بفتحة كبيرة في ظهره كنبع يتفجرّ بين وديان، وليس باليد حيلة. لم تخفِ حماسة الناشطين ولهفتُهم تجاهه، شعوراً خائباً لديهم بأن ما يقومون به لا ينقذ جريحاً بمثل هذه الاصابة.

لم تراودْني رغبة في التحرّك، ولم أتقدم نحوه لشعوري باليأس من

عدم امكانية المساعدة، فأعود ثانية إلى الأمام حيث الإنزال والمقاومة، لأكون جزءاً من أجساد تلتحم بالأجساد. وإذا بالمهاجمين يفرّون تحت ضربات المدافعين، وإذا بالهمهمات المبهمات تصير صراخاً حين يُلقى بأحدهم في اليم. وإذا بالسلاسل الحديدية تطوّق رقاب الجنود، وبالعصيِّ تقارع البنادق، فلم أستطع التمييز بين الدم الصديق والدم العدو، وإذا بالنائبة العربية في الكنيست، **حنين الزعبي**، «قلعةٌ متحركة» تحمل مذياعاً، وتصرخ بالجنود:» **أوقفوا النار، معركتكم خاسرة**».

لما أدركوا أننا انتصرنا... وأنهم خسروا رغم قوتهم الغاشمة، لجأوا إلى المزيد من القتل، لأن عكس ذلك سيشكل «المذلة الأبدية» للجنود وللكيان. كان المزيد من القتل «خيارهم الطبيعي». فبين «المذلة الأبدية» لجنود مدججين مأسورين من قِبَل عزّل معزولين، وبين الإدانة التاريخية... فقد اختاروا الثانية، التي في اعتقادهم أنها ستُحْمى في أروقة الأمم المتحدة ومن ثم «ستُمحى» من ضمير البشرية. صار النشطاء يتساقطون كأغصان شجر طري أخضرَ، تنكسر وتبقى «ممسكة» بالشجرة، علّ الزمن يحييها من جديد.

لقد ضاقت ساحة المعركة «بالجيوش»، فتعذَّرت على المتحاربين إمكانية الحركة أو الاستدارة او التقدم أو التراجع. وبالرغم من ذلك... تشقّ الفضائيات طريقها إلى دائرة الصراع الضيقة المحيطة بصاري السفينة حيث الإنزال. لم تكن الفضائيات لتَهتمّ بصور الشهداء والضحايا، / فلهم حقهم اللاحق بالتغطية والتصوير/ ، بل كان همُّها أن لا تفوتَها تفاصيل جريمة باردة سيذكرها التاريخ.

على الرغم من التشويش على الاتصالات، لم يدرِ العدو أن الآت

التصوير المركزة على أرجاء السفينة وأنحائها كانت تنقل إلى العالم أدق التفاصيل عن جريمة لا ينُكَرُ فِعلُها على أصحابها، وحين تنبّهوا لها، وبدأوا بتعطيلها ونزعها من أمكنتها، كانت «فأسهم قد وقعت في رأسهم» كما يقول المثل.

لقد قتلهم الإعلام والتكنولوجيا والفضائيات التي يعتبرون أنفسهم أفضلَ من يَصنَعُها ويستخدمُها.

كان العدو ضنيناً وبخيلاً بإطلاق الرصاص، لم يجازف برصاصة أخرى إلا بعد تأكده بان هدفهِ قد جُرح ولم يستشهد. بدليل أن عدداً من الشهداء قد أصيب برصاصتين أو أكثر. وقد روى لي من التقيتهم على «مافي مرمرة» في اسطنبول أن ناشطاً تركياً استشهد بست رصاصات.

ويستمر «إنجاز المهمة». رصاصة أولى قاتلة من جندي على الباخرة على ناشط فتُرديه، ورصاصة أخرى من الطائرة المحلِّقة فوقنا تجرح آخرَ بقربي، وحين أهمُّ لنجدته وسحبه إلى داخل الباخرة، تصطادني رصاصة في الرجل اليسرى فوق الركبة، أحس بها كلسعة دبور، ورصاصة ثانية تخترق الرجل اليمنى فوق الركبة أيضاً، فأحسُّ بوزنها أثقلَ من وزن جسمي، وبسبب من اختلاف الثقل بين الرِجلين، يختل توازني فأقع أرضاً وأنا ألقي بجسمي داخل أحد أبواب السفينة طلباً للنجاة.

لقد رأيتهم بأم العين، جنودُ الطائرة «يقتلونني». رصاصتان صائبتان، وثالثة خائبة تثقب برميلاً بلاستيكياً مملوءاً ماءً بقربي.

سال الدم قبل الماء، وسال ماء البرميل محاذياً لدمي. لم يختلطا، فبقيت كل مادة محافظةً على خصائصها.

عادت «**مافي مرمرة**» إلى تركيا، بعد ان غُسلت السفينة لإخفاء الجريمة.

الماء يمحو الدم، لكنه لا يلغيه.

* * *

باطن السفينة ليس كسطحها، صار سطحها ساحة تصدير للجرحى والشهداء، وأما باطنها فتحول ساحة لجثث الشهداء وغرفاً للعناية والإسعاف.

الأطباء والمسعفون الأتراك، «النائمون» طوال الرحلة، «أيقظهم جرس الإنذار» فهرَعُوا إلى عملهم. خلال نصف ساعة نفدت الضمادات والأربطة والشاش المعقّم.

كان «حظي» كبيراً، ولأني كنت من أوائل المصابين، فقد حظيتُ بما يكفي من الضمادات، لكن النزيف الحاد استدعى المزيد منها، بفعل عدوّي الاحتياطي المقيم في محفظتي، والمتمثل بالأدوية المسيّلة للدم، والذي يرافقني على الدوام بحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

كان الجزء الأسفل من جسمي أحمرَ قانياً، وخسارة الدم جعلت الجزء الأعلى أصفرَ شاحباً.

يأتي الطبيب الجزائري المشارك في الرحلة **محمد البوزيدي** فيقول: «ضغطك منخفض قليلاً»، فأجيبه بزهو... «لكن معنوياتي عالية».

الناس من حولي يصلّون على الموتى. أين أبو الشهداء، أين نبيل؟

أين المطران؟ أطلب من أحد الناجين النزولَ إلى أسفل السفينة ليطمئن عليه، وما إن يهمَّ بالحركة حتى تنزرع برأسه عدة بنادق... لا تتحرك.

لقد «حظي» الأطباء بحرية نسبية للحركة، فرجوت أحدَهم تفقّدَ المطران ليعود بعد دقائقَ بالخبر السار: إنه حيّ، لقد تحدّثت إليه.

كان المطران «نزيل» شرف على لائحة من عشرين ناشطاً وُضعت أسماؤهم على قائمة القتل خلال العملية. وبالطبع كان الشيخ رائد صلاح على رأس هذه القائمة، وخلال المعركة جرى انتزاع هذه «الوثيقة العبرية» من أحد الجنود حين كان يهمّ بقراءتها.

رُوي لي في ما بعدُ، أنه بإنزال الأسرى من ميناء «أشدود» كان رئيس الأركان الصهيوني غابي اشكنازي حاضراً يحمل صورة رائد صلاح وينتظره على رصيف الميناء، فما إن ينزل هذا الأخير من السفينة، ويتأكد أشكنازي من شخصيته، حتى يضرب قبَّعته العسكرية بيده، متمتماً منفعلاً وينصرف. لقد استشهد تركي شبيه برائد صلاح وجاء اشكنازي ليتأكد من استشهاد الشيخ رائد، فكانت خيبتُه أشبه بخيبة حرب تموز.

أكرّر السؤال عن أبي الشهداء فيروي لي نبيل الحلاق أنه رأى أبا الشهداء يرفع رأس شهيد بين يديه وهو ينتحب قائلاً: «الله يرحمك يا هاني»، فيتقدم نبيلُ بدوره ليرفع «رأسي» متفحصاً، فيصرخ بأبي الشهداء «لا يا أبو محمد هذا ليس الدكتور هاني»، ومن ثم يعودان مطمئنين ليجداني مبتسماً مردداً: «الحمد لله... الحمد لله».

يسرق نبيلُ نفسه مصطحباً هيلاريون لتفقُّدي، فيصرُّ الأخير على الصلاة على الشهداء تحت أسنَّة الحراب.

بوصول **أبي محمد ونبيل**، بدأ الدم اللزج «يتمرمغ» في مسام جسمي، ولا بد من نزع البنطال ليعطيَني أبومحمد من حقيبته بنطالاً لا يوقف نزيفاً بقدر ما يستر عورة، فأجدها مناسبة لإقفال مسرب الدم بأصابعي من جانبي الرِجل اليسرى، وليتولى **نبيلُ** بأصابعه إقفال المسرب من جانبي الرِجل اليمنى فوق الركبة.

أتحسس جسمي بوصة بوصة فأحمد الله مجدداً. أحاول تحريك أصابع الرجل اليسرى فتستجيب جزئياً، وأنادي أصابع الرجل اليمنى، فتبدو صماءَ فأقول لنبيل: «لقد ضُرِب العصب».

هل تتصوّر يا أخي أن رجلاً يحمل كيس المصل لساعة كاملة دون حراك أو وجل، قبل أن يؤتى بالعمود الذي علق عليه الكيس؟ نعم، هو صلاح الدين ابن منطقة دياربكر التركية. هذا المسعف والطباخ والخادم وموزع الأكل و الحاضر والمدافع والمتفاني في كل لحظة. إن له عليّ ديناً كبيراً آمل أن أرده أضعافاً، شكراً وامتناناً.

* * *

سكون ما بعده سكون. لم يسستسلم الناشطون، بل رمَوا «أسلحتهم» معلنين وقف القتال من طرف واحد، ضناً بالمزيد من أرواح الشهداء والجرحى.

هي هدنة حرب يخرقها العدو، فيبدأ المرحلة الثانية من الهجوم. أعداد غفيرة من الجنود تجمّعت على سطح السفينة، سُمع وَقْع أقدامهم مدِّوياً، بدأت بالتقدم بصورة منظمة مدروسة. خائفة وحذرة، تحتل زوايا الباخرة، ممهدةً لاجتياحها بأصوات جماعية عالية، تتقدمها الكلاب وأدوات التفتيش، ترصد كل طرفة عين فتصوِبُ نحوها السلاح.

ما إن يتحركَ شـخص حتى تنهالَ عليه الممنوعات والأوامر. والعيون تقاوم البنادق المزودة بالحراب. **لبنى مصاروة** الفتاة المقدسية الناشطة في حركة **غزة حرّة** تتكلم عبر مكبّر الصوت إلى الجنود باللغة العبرية وتطلب منهم ألاّ يطلقوا النار مجدداً كما تطالبهم بنقل الجرحى بالسرعة القصوى لأن بعضَهم حالتهم خطرة.

هي ساعة لا أكثر، يتمركز الجنود في أمكنتهم، ليأتي دور الكلاب البوليسية التي ما وفرت إرهاباً إلا ومارسته. **حتى كلابهم كانت صهيونية بامتياز.** لقد تحرشـت الكلاب بكل شـيء، ولم يسـلم منها حتى ذلك العمود الحامل لكيس المصل الذي يغذي جسمي.

بـدأت الجـراح تبـرد، والألام «تزكـزك» النـدوب، لقد ارتويت من مـاء المصـل المضخـوخ فـي شـراييني، حتى أحسسـت بمبولتي كبالون يكاد ينفجر، فاستدعتني الطبيعة وشعرت بالحرج. كيف أصل إلى دورة المياه وأنا بحال من النزف والعجز عن الوقوف؟ أأترك نفسـي لنفسـي فأتبلـلَ وينتهـي الأمـر؟ أم أدعـو نفسـي للوقوف علـى رجلّي المصابتين كجزء من مقاومة العدوان؟

لا لن أستجدي، لن أخاطبهم أو أتحدثَ إليهم... يأتي المسـعف التركـي بكرسـي بلاسـتيكي ليقاسـم نبيـلاً وِزر حملـي، وفوق رؤوسـنا البنادق والحراب.

لقـد دخلـوا معنـا ببنادقهـم وحرابهم إلى الحمَّام، فتعسَّـر التبول... وددت لو أبول على بنادقهم.

بعد سيطرته على السفينة بدأ العدو بإحصاء «غلّة اليوم» من القتلى

والجرحى. قسَّم ركاب السفينة إلى ثلاث مجموعات، فترك الشهداء في أمكنتهم، وبدأ بنقل الناجين من المجزرة إلى أعلى السفينة مكبلِّين ومعصوبي الأعين. أما الجرحى، ونتيجة المفاوضات مع حنين الزعبي والأطباء الأتراك، فقد جرى نقلُهم بالأفضلية إلى المروحية حسب درجة إصابتهم. كنت أراقب عملية النقل واحداً بعد الآخرِ حتى جاء دوري، فعملية نقل الجريح كانت تستغرق حوالي عشرين دقيقة.

من الساعة الخامسة وخمس دقائق صباحاً، حتى الثانية عشرة ظهراً. من الرصاصتين الصائبتين والثالثة الخائبة، حتى وصولي إلى تحت المروحية، مرت أربعمائة وخمس وعشرون دقيقة، كل دقيقة منها، فيها عبرة ودرس.

مُلقى على مقعد، على ظهرك، تتقلَّبُ ذات اليمين وذات الشمال، تتفقدُ جراحك باللمس، وتتفقد جرحاك بالنظر. تحاول أن تعود الجرحى فتعوقُكَ الحركة. وتودّ زيارة «اضرحة» الشهداء فتَصيحُ البنادق فوق رأسك... لا تتحرّك.

وأنا أكتب هذه السطور ساءلت نفسي، لماذا لم أبكِ الشهداء على السفينة حتى في سري؟ فجاء الجواب مبرّراً برفضي الاعترافَ بموتهم... فقدَ حادثتُ بعضَهم قبل المجزرة... وبإستشهادهم، انتهت المحادثة الأولى، لكن الحوار بالروح والذاكرة والضمير معهم طويل... وللبحث صلة.

كيف أبكي؟... ففي المناخات المشحونة عاطفياً، تُقفِل الإنفعالاتُ الظاهرةُ منافذَ العواطف الدفينة فلا يتسرب الدمع.

يتقـدم منـي ثمانيـة جنـود هم أشـبه «بالروبوتات». وبدون أية كلمة منهـم، أُلفـي نفسـي علـى حمالـة، وينطلقـون... يسـيرون بيـن مقاعـد المقصورة ثلاثين متراً، ليُسلِّموني إلى ثمانية آخرين ينتظرون في الطبقة العليا من السفينة.

تتعثـر عمليـة رفـع «الجثمـان» ليتدخل جنديان إضافيان. ومن نقطة التسـليم هـذه، ينطلـق ثمانيـة آخـرون إلـى آخر السـفينة، تحـت الطائرة المروحية المحلِّقة «الثابتة» في الهواء.

كان سـطح السـفينة «نظيفـاً» مـن كلّ شـيء يتحـرك، فقـد تعهّدت المراوح بدَوَرانها الهائل بتطيير كل شيء غيرِ ثابت أو مثبت بالسفينة. كان صوت المروحية كافياً ليصم الآذان وكفيلاً بتهريب هذه الأشـياء، فما لم يهرب من الصوت تكفلت به المراوح.

يكفي أن تمر مروحية من فوقك لثانية واحدة حتى يقشعر البدن، فكيف إذا كانت «نوبتك» تحت الطائرة ربع سـاعة على الأقل «انتظاراً لدورك»، فتتحول إلى قطعة من الثلج. ملقى على الأرض فوق حمالة، مربوط اليدين والرِّجلين النازفتين؟

رب ضـارة نافعـة، لقـد اطمـأنّ قلبي إلى أن البرد سـيوقف سـيلان الـدم، لكـن قلبـيَ المطمئـنَ هـذا، كاد يتوقف من شـدة هـواء المروحية في وجهي، لدرجة الاختناق.

خلال الدقائق الأولى من وجودي تحت الطائرة أصبحت «كرجل الثلج» الملقى على ظهره لا تتحرك فيه إلا العيون. يكتمل ربع الساعة، وإذا برجـل يتدلـى مـن المروحيـة، مزنّـراً بالحبال والأسـلاك الحديدية،

«يحط» على جسدي ويشبك الأسلاك المتدلية بالحمالة الحديدية من ناحيتيْها، «فيحضنني» وترفعنا الطائرة، لأنظر إلى تحت وأنا في الهواء، فأرى جموعَ الناشطين المكبلة أيديهم خلف ظهورهم، فأرفع لهم شارة النصر هاتفاً: انتصرنا... هزمناهم. ليجيبني الأول «الله أكبر» والثاني «تسقط إسرائيل» والثالث «عاشت فلسطين» والرابع «حماك الله» والخامس... والسادس و...

كانت الأسلاك الحديدية تشدني إلى فوق، حيث قلب الطائرة، وكانت الأوتار الصوتية وأصداؤها تشدني إلى تحت، حيث قلوب الناشطين، فالنزاع بين الاتجاهين على النقالة الحديدة التي تحملني غيرَّ وجهة سيرها، فبدل أن تدخل النقالةُ إلى قلب الطائرة بالطول، فقد «عَوْرَضَت» أمام بابها.

وككل حالة صراع مؤقتة تنتصر فيها المادة على الروح، فقد هيمن صوت الطائرة على أصوات الناشطين، ونجح الجنود المنتظِرون في الطائرة في تغيير وجهة سير النقالة الحديدية لأُلفيَ نفسي في «براد» كبير في الداخل. ما إن يصل الجريح بحمالته الحديدية حتى يجري شبكُها وتعليقُها بجدار الطائرة. حمالة فوق أخرى، كجارور فوق جارور. كان نصيبي في الجارور السفلي «للبراد».

لفترة وجيزة خلت نفسي في جبانة مسيحية، نعوشُها موضبة فوق بعض. أن تختار بين البراد أو الجبانة، كان دور مروحية الطائرة حاسماً في «الخيار» الأول. من السفينة إلى الطائرة، عشرين جريحاً كنا في «براد» واحد. وبالنظر إلى عدد الجرحى الكبير على ظهر السفينة، اعتقد أن براداً إضافياً «سيحلّق» بعدنا في الأجواء.

راحت الطائرة توزّع هواءها «بالعدل والقسطاس» على الجرحى، فقلت لنفسي: «في «سفينة الأخوّة» اكتشفتُ مياه فلسطين، وعلى ترابها اعتقلتُ ليوم كامل، وها أنذا اليومَ أحلق في أجوائها، ولم يعد ينقصُني بعدُ أيُّ عنصر من «مقومات المواطنة الفلسطينية»، فأردد أغنية طالما ترددتْ على مسامعنا في سبعينيات القرن الماضي «فلسطيني الهوى قلبي».

ومن مروحية مفتوحة في سماء فلسطين في ظهيرة صافية، رحت أجيل النظرَ ما استطعت في الجبال والمدن والشوارع، فلم أجدْ ما يفرق بينها وبين شقيقاتها من المدن العربية. بنايات شاهقات متشابهات، ومظاهرُ حداثةٍ غربيةٍ في البناء والعمران، فأتألم وأشفق على أولئك الذين لا يزالون يحتفظون بمفاتيحِ بيوتهم. هل سيعرفونها إذا عادوا؟ / هذا إذا عادوا/ هذا إذا بقيت تلك البيوت.

لا ألم في جسدي. فوجودي في «البراد» جعل مني قطعة واحدة، تعطل معها دور الأعصاب الناقل للشعور بالإحساس، أما الألم النفسي فمحفوظ لفترة، مغلفاً بفرحة الظفر بالحياة.

نصف ساعة من الطيران وأنا مثقل بهمّين: هَمٍّ مصير الأسرى في سفينة «مافي مرمرة» بعد أن «مرمرتني» رؤية بعضهم مكبَّلين معصوبي الأعين... وهمٍّ كيفية «إِستقبالنا» على الأرض.

لم أفهم كيف فرقوا بين أسير وأسير على السفينة، وكيف عصبوا أعين بعضهم وتركوا عيون الآخرين طليقة. لم أستطع تفسير ذلك إلا بعد أن عرَفت ان الذين عُصبوا كانوا من «المشاغبين» على جنود الاحتلال، أما الآخرون «فلحكمة» عند العدو تقول: يجب أن نترك بعضهم يرى

ما يجري، ليروي ما رأى... عبرةً للآخرين.

هي رحلة طويلة طول يوم «كانوني» بلا كانون. أتذكرُ أني نسيتُ جراحـي خلالهـا. ومـا إن بـدأت الطائرة بالهبوط حتى شـعرت بتحسـنٍ في المزاج، سببُه شعوري بأني سأخرج من البراد.

* * *

تحطّ الطائرة في فناء مجمع عسكري كبير تطوِّقها سيارات إسعاف عديدة، ما أن تنطلقَ إحداها حتى تبدأ بالصراخ ككلاب مسعورة تستقبل ضيفاً غريباً، لتلج مدخلاً تجمَّع فيه رهط كبير من الأطباء، إنه مشفى مستعمرة «بتاح تكفا».

وكلمة «بتاح تكفا «العبرية هذه، معناها «الأمل» بالعربية، وهي أول مستعمرة أنشأها المستوطنون اليهود سنة 1878، بعد أن اشتروا مساحات شاسعة من أراضيها، لكن السلطان العثماني آنذاك رفض تسجيل الأرض باسمهم. اليوم يعيد التاريخ نفسه، بأن يرفض «السلطان العثماني» تسجيل الأرض بأسمائهم. وما إن حلّت نكبة 1948 حتى وجد الفلسطينيون فيها أنفسهم عرضة للتهجير. غير اليهود إسمها من قرية «الميسرة» إلى اسم «بتاح تكفا» بعد أن هجروا أهلها منها. ولم ينجُ أهالي البلدة من عمليات القتل، فقد قَتَلَ اليهودُ منهم «ما ملكت أيْمانهم».

حين علمتُ ما حلّ ببلدة «الميسرة» تذكّرتُ ما قرأتُ عن سائر مدن فلسطين، وكيف ان عمليات الاستيطان كانت تُنفَّذ وفْقَ خطة مدروسة تقوم على مصادرة الأراضي والقتل والتهجير وتغيير المعالم كافة. وتذكرت ما رواه لي السيد أحمد يحي وهو مناضل من بلدة كفركلا اللبنانية شهد مرحلة النكبة والاستيطان، كيف جاء جيش «الهاغانا» إلى البلدة بحاملات الجند، «يُغني» أغنية يذكرها أهالي البلدة تقول:

نحنا جيش الهاغانا ويلو ألْلّي بْيتحدّانا
شتّينا بِفَلَسْطينْ وحنصيف بلبنانا

يتذكر المناضل أحمد يحيى ويقول بمرارة: «نعم كانوا يغنون بالعربية»، ويُضيف هازئاً:» أن بعض اللبنانيين والعرب يومها ردوا لهم التحية بأحسن منها وتفوقوا عليهم، فصاروا يغنون بالعبرية، أليست ميزات اللبناني هي امتلاكه لأكثر من لغة!

* * *

الفوضى العارمة تعمّ المكان، جرحى بالعشرات على الأسرّة والأرض. كان الأطباء والممرضون باردين ببرودة جسمي في الطائرة. الجرحى ليسوا جرحاهم، ولا يمتّون إليهم بصلة أو علاقة، سوى علاقة قادتهم القتلة بالمقتول، أوالجارح بالجريح، أوالجلاد بالضحية. لغة عبرية غير مفهومة. أما الأطباء والممرضون العرب بينهم فكانوا أقلية. بان ذلك من حجم تداولهم في ما بينهم بالعربية. يتقدم اثنان ليكشفا على جراحي وينصرفان، فأصبحُ وحيداً في زاويتي، لألمحَ من مسافة رجلاً يقترب مبتسماً كأنه «يأمرني» بالاطمئنان فأستجيب... ويقول: «الحمد لله على السلامة».

إنه عربي، ومن واجبي أن أرد التحية، وقبل أن أُجيبَ يُمطرني بزخات من التهنئة والمديح: «**لقد رفعتم رأس أمتنا، ولكم دين في أعناقنا، نحن نعتز بكم**». ويردف قائلاً دون خشية من الأعين والرقابة: «أنا بخدمتك...سلني واطلب ما تشاء».

لكم بلسمتْ هذه الكلمات جراحي، وأعطتني شحنة من الحرارة أذابت الجليدَ المتراكم في جسمي، فانتظم تنفسي، وسكن قلبي. ثم قلت له: «يا أخي أرجوك أن تتفقد الأخوة الأتراك فهذا يرفع من معنوياتهم، ويمدّهم بالمزيد من الصبر والمقاومة». .

ولـم أكـن لأتصـوّر أن «يطـوف حظـي» لدرجـة الحديث مع أهلي في لبنان.

حيـن كنـت فـي الطائـرة، ذهـب بـي التفكيـر إلى عائلتـي وكلّ من يعرفنـي؟ و كان همّـي أن أخفـف قلقهـم وأُبلغهـم انـي لا أزال حياً. لم أكن أعلم أن جميع الأهل والأصدقاء والمعارف قد رأوا صُوَري على الفضائيات، واطمأنوا إلى أني لست في عداد الشهداء.

بعـد عـودة الطبيـب مـن جولتـه علـى الجرحى الأتـراك، جاء يلح علّـي مجـدداً: «أنـا بخدمتـك... اطلـب مـا تريد». لم أكـن لأتصورَ أن أكون محظوظاً جداً في تلك اللحظات، فالحظّ يأتي مرة ويروح، قلت لنفسي: تلقّفه يا رجل. لم يدُر بخلَدي أن طلباً بالتحدث مع لبنان من دولة عدوة، يمكن أن يتحقق بهذه السهولة، فرجوته إبلاغ أيّ مواطن فـي لبنـان وبأيـة طريقـة كانـت، أنـي لا أزال على قيـد الحياة، ليجيبني على الفور: «هاك الهاتف، تكلم»، وليخْرجَه من مكانه ليضعه بتصرفي. تمتـد يـدي نحـوه... ومـن ثـم تتجمد في الهواء. يـدي والهاتفُ وجهاً لوجـه، كلّ ينظـر بعيـون الآخـر، والطبيب مسـتهجن وملحاح، تفضل.. تفضـل... قلـت لـه: ألا تخشـى مـن العقـاب؟ وقلت لنفسـي: أمَّا وقد ارتضى التضحية فلا بأس.

أعطيته رقم هاتف زوجتي «جهان» فلم تكن على السمع. أعطيته رقـم ابنـي البكـر أدهـم الـذي كان فـي عـداد المتظاهريـن أمـام مكاتب الأمـم المتحـدة فـي بيـروت «الأسـكوا»، ليجيب علـى الفور، فأتحدث معه ومع أخي معن بشـور، كلمات معدودات مطَمْئناً إياهما أن شـظية خارجيـة صغيـرة اصابـت رجلـي، وأن جرحـي بسـيط، فأنـا الآن بحالة

جيدة في مشفى «بتاح تكفا»، فتُنْقَلُ المكالمةُ معهما مباشرة على إحدى الفضائيات، لأعتذر بعدها عن عدم المتابعة، منعاً لإحراج هذا الطبيب الذي لن اذكر اسمه الآن، ولن أنساه ما حييت.

بانتهاء المكالمة مع لبنان تنزاح صخرة كبيرة عن صدري. وبعدما وصلت الرسالة «بالمولود الجديد» رحت مجدداً أتفرَّغ لنفسي، فأحددُ موقع جراحي على خارطة جسمي. وقبل أن أنهيَ المهمة يتولى الكشف عليّ طبيبان يتحدثان الإنكليزية، فأتأكد بحدود فهمي لهذه اللغة، ولحالتي الصحية، كما أحسها، أن ما توقعته من أضرار كان صحيحاً.

لا خوفَ على الرِجل اليسرى، أما اليمنى فقد فعلت الرصاصة فِعْلَها في أحد الأعصاب المؤدية إلى القدم اليمنى. فحرقته وقطعته في آنٍ، ما أدى إلى نزيف داخلي.

إذاً فالرِجل اليمنى «معطوبة»، وسينطبق علي منذ الآن وحتى إشعار آخر وصف «الصبي الأعرج»، ويا ليتني أعود صبياً... ولو أعرج.

عزَّيت نفسي ومنّيتها، حين استعدتُ ما يقال في الطب الشعبي الشائع إن ضَعْفَ أو جرحَ عضو في الجسم، يؤدي إلى تقوية عضو آخر، وعليه فلا بدَّ لقطع عصب من أن يؤدي إلى شد عصب آخر، والله أعلم.

لقد فعلت المكالمةُ مع لبنان فِعْلَها المعنوي، فشعرتُ أن كل أعصابي سليمة، وراودتني فكرة تحدّي واستفزاز من يصادفني، فلو جاء أحد الجنود لركلته باحدى رجليَّ النازفتين.

التفتُّ من حولي لأجد نفسي مع ستة من الأتراك في غرفة واحدة

وقد أنهكَهم الإِعياء.

حبالُ مصل تتدلّى رفيعة، وأبرٌ تغور في شرايينهم كأنها دبابيس على خارطة الجريمة، وأجساد لا حراك فيها. صامتون لا يتحدثون مع بعضهم البعض. ألقيتُ عليهم السلام بالعربية، فأجاب البعض "بالتركية" هزاً بالرأس، وصمت الآخرون عجزاً عن الكلام. رغبة الكلام عندي جامحة، وصعوبة النطق عندهم واضحة.

شعرت بنفسي أُثقلُ على آلامهم، فتركتهم يرتاحون.

* * *

كان الناشطون الفلسطينيون على ظهر الباخرة قد وزّعوا علينا لائحة من «التعليمات» لاتباعها لدى حصول الأسر.

تقول إحدى هذه التعليمات: يَطلبُ الأسيرُ سفيرَ بلاده إذا كان بين بلاده و«إسرائيلَ» تبادل دبلوماسي. أما في الحالات الأخرى فيطلبُ حضور مندوب عن الأمم المتحدة، وسيكون رجل من الصليب الأحمر غالباً هو المندوب.

يأتي القنصل التركي لزيارة جرحاه مرة بعد المرة، أما أنا «فيتيم» أو «مقطوع من شجرة». أسخر قائلاً: «ما بكَ يا لبنانُ لا تقيمُ علاقة دبلوماسية مع «جارتك» إسرائيل، فيزورني السفير أو القنصل؟ ليبلِّغ، في ما بعد المسؤولين أنه اهتمّ بأحد مواطنيه وقام «بالواجب الوطني» على أكمل وجه، ويأخذ الصورَ معي لينشرها في وسائل الإعلام اللبنانية، ومن ثم تجيء زوجته وعائلته ليقدموا لي باقات من الزهور، ويسألوني عن «احتياجاتي الشخصية»، ليعودوا في المساء إلى «نادي سفراء الدول العربية في إسرائيل» للتنادم والسهر، ومن ثم يُلْقون عليَّ باللائمةِ لما

قمتُ به من مغامرة لا تُحرِّر فلسطين.

وددت لو أن كل الجرحى العرب شاركوني الغرفة، لأعرف عدد الدول العربية التي تعترف بإسرائيل، حتى تلك التي لا تقيم علاقة دبلوماسية معلَنة مع هذه «الدولة».

طلبت لقاء مندوب الأمم المتحدة، الذي جاءني بعد ساعتين، وأخذ من المعلومات ما يكفي لتطمين الأهل في لبنان. هي ساعات قليلة، وأُلفي نفسي كأني في مشفى بيروتي. أطباء وممرضون عرب، والصحافيون بالرغم من المنع الصارم للزيارات، لا أدري كيف تسلّلوا للتحية والاطمئنان والتطمين. يا دكتور: «وضعك الصحي مستقر، وصورُك محمولاً من المسعفين على السفينة أو ممدداً على الأرض، أوحت للأهل والمعارف أن الخطر بعيد عنك، فلا مجال للتلاعب بحالتك الصحية، أو لإيذائك لاحقاً فقد أصبحت قضيتك معلومة»... ومع كلّ زائر عربي كنت أرسل رقم هاتف الأهل والمعارف.

أكادُ أكون في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت، فتلك تُشبه هذه من حيث المظهر الخارجي والهندسة والتقطيع، ربما لأن جهة أميركية واحدة هي البانية، وهي المشغِّلة.

حركة الجنود لا تهدأ. يدخل الضباط والجنود من مختلف الأجهزة. تُعرف وظائفُهم، من اختلاف بِدَلهم. ينظرون إليّ ويذهبون. بعضهم يقف في مدخل الغرفة يتفحَّص من بعيدٍ وينصرف. آخرون يقتربون مني وهم يتحادثون، يهزون رؤوسهم بالموافقة. لقد فهمت بالعربية ما كانوا يقولونه بالعبرية: «هذا الجريح هو ذاته هاني سليمان الذي جاء إلينا في شباط 2009». كانت نظراتهم المقيتة نحوي، الباردة

بـرودة طيـن الشـتاء، تؤكـد «معرفتهـم بقصـة هذا الرجل». نَظَرٌ بشَـذَرٍ وبـدون انفعـال، فَهُـمْ رجـال أمـن، وإظهار الشـعور لـدى رجل الأمن ممنوع.

إنها العاشـرة مسـاءً. عرفت ذلك من سـاعة معلّقة على الحائط. يتقدّم مني طبيب وممرضة يوحيان لي بضرورة إجراء عملية.

تحركت بصعوبة في سريري حتى ارتفع رأسي قليلاً لأسألهم عن نـوع العمليـة، فـكان الجـواب أنهـا تنظيف وتعقيـم وتقطيب، فقلت في نفسي: «تنظيف وإقفال منافذ الجروح... لا خوف عندي، أما «التعقيم» فمسألة أخرى.

توجست كثيراً ورحت أسألهم:

- كم من الوقت تستغرق العملية.

- ساعة واحدة.

- هل البنج موضعي أم عمومي؟

- كلا البنج عمومي.

- هل أستفيق بعد العملية مباشرة؟

- بعد ساعة من العملية.

لم يكن أمامي سوى الموافقة فأنا بين أيديهم، وإذا أرادوا بي شراً، فيمكنهم تمريره بالمصل. ربع ساعة ونعود، قالوا.

راحت الأفكار والأسئلة تتلاطم في ذهني وتأخذني ذات الشمال وذات اليمين.

كلمة التعقيم تحتمل أكثر من معنى.

فـإذا أرادوا تعقيـم الجـرح فـلا بـأس، فأنا أسـير حـرب وجريحها. أمـا إذا أرادوا «تعقيمـي» وقطـع نسـلي فقـد وصلـوا متأخرين، وفي كل الأحـوال... حمـى اللـه أولادي فأنـا فخـور ومكتـفٍ بهـم، أما زوجتي «الصبية» الخمسينية فقد أدّت قسطها للعلى بالإنجاب.... مازحت نفسي قائلاً: وما همّي، فالفلسـطينيون في كل مكان، وأهلنا في الجنوب كما هو معروف، يتكفَّلون بسد هذا «النقص الفادح» في النسل.

قلت لنفسي مازحاً: إذا أفقتُ بعد ساعة، فهذا يعني أنهم كقادتهم «صادقـون» فـي كل شـيء، وإذا لـم أفِـقْ ابداً، فأنا سـأفضحهم وأوصي عائلتي بالقول: إنهم يكذبون في كل شيء.

وبالفعـل تنبئنـي السـاعة المعلقـة على الجـدار، أنهم «صادقون في كل شيء».

توزَّع وقتي بين النوم سـاعةً واليقظة سـاعة أو أكثر. في لحظات اليقظة كنت أسـأل نفسـي لماذا لم يأتوا للتحقيق معي حتى الآن؟ ففي المرة السابقة طال التحقيق لساعات. هل لأني جريح، ومراعاة لجراحي سيقفزون عن جدار التحقيق، أم أن وقته لم يحن بعدُ؟

وكنت أتحاور في داخلي قائلاً، من هي الجهة الأمنية التي ستتولى التحقيق؟ موْقناً أنها ستكون الجهة نفسها التي تولت المهمةَ في المهمةِ السابقة. إنها مهمة، كما قدَّرتُ، لا تدخل في صلاحية «الموساد»، ولا المخابـرات العسـكرية الإسـرائيلية. ولا «الشـاباك»، الأمـن العـام. إنهـا تدخـل فـي صلاحيـة مخابـرات القوى البحرية. ومهما يكن من أمر فإن

الجهة نفسها التي تولت التحقيق سابقاً ستكون على صلة به، حتى لو لم تكن هي المعنية مباشرة بالموضوع.

في فترات النوم على قِلّتها كانت الرؤى غزيرة. ففي كل الأحلام كما هو معروف، يكون الماضي بقريبه والبعيد، طَبَقَ المائدة الرئيسي. وفي إحدى هذه الأحلام أعادني الماضي القريب إلى أجواء التحضير لسفينة **الأخوة اللبنانية**، في شباط 2009، مع الأخوة، زميل مهنة المحاماة ورفيق العمر **خليل بركات**، ومع ذي الباع الطويلة في تأمين السفينة الحاج **عبد الله الترياقي**، فيصل درنيقة الذي وصل الليل بالنهار لتامين وصول المساعدات إلى ميناء طرابلس حيث انطلقت السفينة، والحاضر دائماً **مأمون مكحل** مخْزن المعلومات ومخزّن المساعدات المجموعة من بيروت وباقي المناطق اللبنانية ومع مقرر لجنة المبادرة الوطنية لكسر الحصار عن غزّة، الجندي المجهول في كل نشاط أو تحرك **ديب حجازي**. ومع الإعلاميتين المقاتلتين على ظهر السفينة **سلام خضر وأوغاريت دندش**، ومع الشيخين داوود مصطفى وصلاح الدين العلايلي،اللّذين كانا على ظهر السفينة مع المطران ايلاريون كبوجي شخصاً واحداً بأزياء مختلفة.

أما الأحلام البعيدة فقد «أعادتني إلى طفولتي»... وعادت بي الأيام إلى أحداث سنة 1958، إلى ما يعرف بالثورة على حكم كميل شمعون. في تلك الأيام كنت في التاسعة من عمري، عندما «حظيَ» شقيقي الكبير هشام، رحمه الله، ببندقية «أف أم»، وصلت مع مئات من البنادق عبر جرود عرسال المتاخمة لسوريا، دعماً للمقاومة العربية في لبنان.

على المقلب الآخر من التلة المقابلة لمنزل أهلي في بلدة «**بدنايل**» البقاعيـة، كان لأهاليهـا موعـد ليلـيّ مـع الأحداث، يراقبون ما يدور من معارك بين الجيش والثوار في مدينة **بعلبك** التي تبعد عشرين كيلومتراً عن البلدة، وتحديداً في **منطقة «الشـيخ عبد الله»**، حيث كانت النيران المشـتعلة هناك، تُرى ليلاً بالعين المجردة أحياناً، وكان دويّ القصف «يُرى» بالأذن أحياناً أخرى.

كانت حشريتي تأخذني إلى تلك التلة وأنا «أأصغر الثوار»، «فأدسُّ أنفي» بينهم مستفسراً من جهة، ومحاولاً تأكيد حضوري المتطلع لأصبح رجلاً من جهة أخرى.

لم يقتصر اللقاء فوق التلة على المسـلحين، بل كان «يسـتضيف» عدداً متراوحاً من الأهالي يَحْضرون بدافع القلق أوالفضول لمعرفة ما يجري من أحداث في **بعلبـك**.

وأذكر من تلك الأيام، أنني كنت أتحيّن فُرصَ غيابِ أهلي وإخوتي عن المنزل، وكان والدي ما زال على قيد الحياة يعاني من مرض عضال، فأسحب البندقية من مخبئها وأَلهو بها، متفحصاً، مخرطشاً، مصوِّباً بدون إطلاق نار على أهداف وهمية في التلة المقابلة للمنزل.

اسـتمرت علاقتي السـرية بالبندقية ما يقارب السـنة، أُخرجها من مخبئها، وأجيل النظر فيها، إلى أن انفضح أمر «علاقتي بها»، يوم أطلقتُ رصاصة على هدف ماثل أمامي، فركضت عمتي توَلِولُ بغضب وخوف، الى أن حضر أخي الكبير مبتسماً بغضب مفتعل، أوغاضباً بابتسامة لم يسـتطع إخفاءهـا، فنقـلَ البندقيـة من مخبئهـا، وانقطعت أول علاقة لي، كفتًى يافعٍ، بهذه الأنثى التي تكبرني عمراً، والتي لم أسمع صوتها إلاّ

مرة واحدة.

انقطعت علاقتي الخاصة بها عدة أشهر، إلى أن «حضرت قضيتُها» في اجتماع عائلي، للتداول والبحث عن كلفة عملية جراحية للوالد الذي كان يعاني من المرض العضال.

أستميح القارىء عذراً لأصف شقيقي هشام... «بالكبير»، لأنه كان كبيراً بالفعل. فبعد وفاة الوالد سنة 1959، حوّلته المسؤولية إلى «والد» لي، ولثلاث أخوات وأربعة أخوة، ولعمة طاعنة في السن، ووالدة داوت حالة القلة بصبر جميل.

هشام، «والد» بعمر العشرين، لعشرة أولاد قصّر، لا يكبَر أحدُهم الآخرَ إلا بفترة «حملان البطن» على حد تعبير أهل القرى. لا مورد عندنا، سوى بقرة حلوب، كانت الوالدة تدير وتعيل المنزل من مردودها المادي الناشئ عن بيع الحليب، وكان هشام في أول عهده بالوظيفة، كمدرس محدود الراتب يعاونها في إدارة المنزل.

كانت البقرة رفيقتي اليومية، آخذها كل يوم بعد المدرسة إلى المروج الخضراء، أو إلى جوانب سواقي المياه في سهل البلدة، فتأكل «ما يحلو لها» وما يُشبعها، لأعود بها «لتُشبِعَنا» هي في اليوم التالي. وأتذكر جيداً كم كان سروري غامراً حين كنت أتحسس خاصرتيها وأطمئن أنها قد شبعت عشباً وارتوت ماءً، فإن في ذلك إشارةً الى أن ضرعها سيغدق كمية لا بأس بها من الحليب. وكنت وأنا اتحضّر للامتحانات... أتوزع عيناً على البقرة الأكول، وعيناً في كتاب مأمول.

تأكيداً لأهمية تربية المواشي، كان يقال في القرى إن البقرة «تفتح منزلاً». لكن مع كثرة عديدنا في المنزل لم يكن ثمن الحليب يكفي مصروف العائلة، فكان جزء منه يذهب «للاستهلاك المحلي»، والباقي يباع، مضافاً ثمنُهُ لراتب هشام المحدود، فحاول أهلي بيع إحدى قطع الأرض التي اشتراها الوالد بعد عودته من أميركا سنة 1936. كنت اسمع مجازا حول تدني أسعار العقارات أن «سعر الأرض... بالأرض»، فلم نجرؤ على عرض أي عقار للبيع، كما لم يتقدّم أحد من أبناء البلدة بعرض مقبول. وكما يقال، لو «خليت فنيت»، كان الأقارب في حدود قدراتهم تلك الأيام، خيرَ معين للعائلة على تجاوز بعض المصاعب المادية على غير صعيد ولأكثر من مرة، جزاهم الله خيراً.

اشتد المرض على الوالد في مطلع صيف 1959، وكانت العملية الجراحية الخيارَ الأخير للشفاء غير الأكيد. من أين المال...؟ سؤال، أضحى جواباً عن كل طلب لمصروف أو خرجية، أو ثمن حذاء أو فستان، فكيف بتكاليف عملية جراحية؟

كانت المداولاتُ بهذا الشأن تتمّ بمعزل عني كطفل يافع، باستثناء عدد قليل منها كانت تفرضه صدفةُ حضوري، أو استراقيَ للسمعِ لمحادثات جانبية.

المداولة الوحيدة التي دعيتُ إليها، كانت يومَ اتخاذ القرار بوجوب تحديد يوم العملية الجراحية. اجتمعنا في «غرفة الصالون»، واقترح أحد اخوتي إغلاق الباب كي لا يتسرب مضمون الاجتماع إلى الخارج. وكان جواب هشام: **أن ليس لدينا ما نُخفيه... فالبلدة «عائلة واحدة» تعرف واقعنا المادي، وتتحدث عن أوضاعنا وتتعاطف معها**، مضيفاً بالقول،

وصوته يرن في أذني الآن: ليس في متناولنا ما نبيعه لإجراء العملية سوى البقرة أو البارودة، فماذا نبيع...؟

وكعادته فقد استمع إلى الجميع، كما استمع اليّ أنا أصغرُ الحاضرين وآخرُ المتكلمين، فقلت: نبيع البارودة لأن البقرة «تُعيِّشُنا»... ربما كان قولي هذا، نابعاً من انقطاع اتصالي بالبندقية، ومن معايشتي اليومية للبقرة التي أصطحبها إلى المراعي.

بعد جولة من الحوار مشوبةٍ بالحزن والقلق. وبشيء من الهيبة جاء الكلام الأخير «للرئيس» حاسماً معبراً. << **من لايملك شيئاً لا يمكنه بيعه. البقرة تُشرى وتباع، والبندقية تؤخذ ولا تباع. البندقية ليست ملكاً لنا، إنها ملك للأمة** >>... بكى الجميع يومها، وبكيتُ على بكائهم وانتقلوا إلى غرفة الوالد يتحلقون حول فراشه.

كان الوالد رجلاً شبه أميّ، ساقته حظوظه خلال الحرب العالمية الأولى إلى العمل في محطة بلدة «رياق» العسكرية القريبة من بلدتنا، كرئيس لفريق من الشغيلة في المحطة. خلال العمل إكتسب بعض التعابير والمفردات الإنكليزية التي كانت زادَه للسفر وقد كان الكساد والجراد والهواء الأصفر والطاعون، مفرداتٍ مألوفةً فرضت نفسها على حياة لبنان والمنطقة، وكان الظفر بالسفر نعمةً ما بعدها نعمة، على قاعدة «أُنجُ سَعد فقد هَلك سُعيد».

وصل الوالد إلى أميركا واشتغل في شركة «فورد» لإنتاج السيارات. وكان يستخدم بعض ما يدّخره من أجوره كدفعة أولى في شراكة، لشراء قطعة أرض صغيرة في ولاية تكساس، ثم يبيع أسهمه من الأرض بربح معقول، ويوظف ربحه لشراء أسهم أخرى، إلى أن

تحسن وضعه المادي وراجت أعماله فأصبح من أركان الجالية اللبنانية هناك.

كنت أسمع من كبارنا أنه كان رجل خير ووطنية في المهجر، يساعد المحتاجين اللبنانيين على تدبّر أمورهم، ويتبرع للدوريات والنشريات العربية والإسلامية الصادرة في المهجر. وكان يتواصل خطياً مع عدد من الجاليات العربية في أميركا الجنوبية. بعض هذه المراسلات ما زال محفوظاً لديّ في المنزل.

راجت الأخبار في البلدة تقول إن الله أعطاه في أميركا حسب نيته، فغناه وأغناه. وراحت المراسيل إليه تترى، منها من يدعوه إلى العودة والاستثمار في بلده، ومنها من يدعوه لشراء أرض في البلدة أو في منطقة «**الخوام**» في بعلبك. واللافت في هذه المراسيل أن أياً من محرريها لم يقترح عليه شراء قطعة أرض في بيروت لأنها في مطلع القرن العشرين كانت بعيدة جداً، ولم تكن موضع اهتمام أبناء البلدة البعيدة عن بيروت. وهو لو فعل، لكنا الآن «بيارتة» أغنياء.

واحدة من هذه المراسيل»سبحت» عكس التيار، مؤرخة في نهاية سنة 1929 أرسلها له ابن أخيه يقول فيها بالحرف: «يا عمي لا تعطِ سمعكَ لاحد، لست بحاجة إلى الأرض في لبنان. صحيح أن وضع الدولار صعب والاقتصاد الأميركي منهار هذه الأيام، لكن الدولار أقوى عملة في العالَم... امسكْ دولارَك»...

وكما هو معلوم فإن الجواب على الرسالة تلك الأيام كان يتأخر لعدة أشهر، وجاءت رسالة مطوّلة من الوالد إلى ابن أخيه «الحاج هدار» تنتهي إلى القول: «تطلبون مني التمسك بالدولار، وأنا من بلاد الدولار

أطلب منكم التمسك بعروبتكم وإسلامكم».

حين «إستيقظت» من رحلتي في الماضي البعيد وذكرياته، فسّرت سبب «عودتي» إلى تلك البندقية بما رأيته على السفينة في تلك **«الساعة التي هزّت العالم»**. كما فسرت سبب عودتي إلى الطفولة هو أني قد «ولدت من جديد». في كل الأحوال لا أريد إِلزام القارىء العزيز «بتفصيلِ» تفسيرِ على قياسي، قد لا يوافق عليه صديقنا المشترك **«فرويد»** ملك تفسير الأحلام، العاجز عن تفسيرِ لماذا لم تتحقِق أحلام البعض، وخصوصاً عند العرب!.

تركيا المسلمة هي اليوم بلدٌ «عربي» بامتياز، فأحلامي والرؤى أبقتها في البال، ويقظتُها فعلت فعلها، فاستقام ما كان مُعوجّاً.

* * *

هي الخامسة صباحاً. استفيق من نوم عميق نعمتُ به بعد سهر دام ستين ساعة تقريباً على صوت حاد عالٍ يقول: «هاني سليمان قمْ. لقد عدتَ ثانية... ألمْ تتعلم في المرة الأولى؟ انت لم تدفع الثمن الكافي، ستدفعُه اليومَ مضاعَفاً. قمْ... استفق».

تقلّبتُ قليلاً وتحصلت بصعوبة ونظرت إلى أعلى، لأرى رجلاً مربوع القامة، كثيف الشعر، مع ميل إلى الاحمرار في الوجه. تفحَّصت فيه ملياً. كنت قد تنبأت بالجهة التي ستتولى التحقيق، ولم يذهب بي الحدس او الاحتمال للتنبؤ بالشخص الذي تولى التحقيق معي في المرة الأولى. إنه هو. لقد عرفته للتوّ. لم أتكلم، بل لم يَدَعْني أتكلم ليرشقني بسيل من الأسئلة دون أن يطلب جواباً عليها.

- لماذا قاومتم جيش الدفاع الإسرائيلي؟
- لماذا ضربتم جنودنا بالسلاح الأبيض؟
- لماذا احتجزتم عدداً منهم على السفينة واعتديتم عليهم؟

كان الفلسطينيون على السفينة قد أجروا لنا «دورة تدريبية» على مواجهة التحقيق، وأكدوا علينا عدم الجواب على أي سؤال إلا بحضور محامٍ، وأضافوا شارحين:

«لن يكون دور المحامي هاماً في التحقيق، فالقضية معروفة، وأن مجرد وجوده إلى جانبك يفي بالغرض لمنع إستغلال الإفادات أو تحويرها، والأهم من ذلك... أن المحامي ينقل إليك ما يجري في

الخارج فتكون على بينة من أمرك.

وكما لقّنونا في «الدورة التدريبية» أجبت: «**أنتم قراصنة، اعتديتم علينا في المياه الدولية، أعيدوني إلى السفينة**». وأغمضت عينيَّ وأدرت ظهري محاولاً النوم مجدداً، ليجيبني بشيء من الاستفزاز والتهكم: «جئت لتنام هنا»؟ قم تحدث معي، لم أعهد انك جبان، فانت شجاع كما تروي قصتُك عن محاولتك الأولى، قم للحوار رجلاً لرجل، قالها بالانكليزية «Man To Man».

أذكر أني في تلك اللحظة فرحت كثيراً، لأن رواية «غزّة في مرمى البصر» قد وصلتهم. وباعتقادي كان حصولهم عليها بدافع الأَرْشَفة وعمل المخابرات، وليس رغبة بالاطلاع على الرواية لقيمتها الأدبية، وبخاصة أني لست من كتّاب القصّة أو الرواية.

تذكرت ما أوردته في تلك القصة عن التحقيق معي، وعن مدى اهتمام «الإسرائيلي» بالآداب عموماً واستحواذها على فكر بعض الكتاب والأدباء داخل «إسرائيل»، ولعلّ من الفائدة في شيء أن أستعيد ما دار بيني وبين هذا الضابط رفيع الرتبة.

- «أنا ضابط في جيش العدو الصهيوني الغاشم»... قال هذه العبارة بتهكّم.

- أعرف ذلك.

- هل تريد أن تشرب القهوة؟

- كلا.

- هل تريد أن تدخن؟

- كلا.

- أنت لبناني شيعي مثقف، هل تخبرني لماذا أتيت إلى غزّة... هل لك أقاربُ هنا؟

- أنت تتكلم العربية بطلاقة... ولولا ذلك، لسألتك من أين أنت... هل أتيت من «الفالاشا» أو من «هولندا»، أو من «بولونيا»؟

- ماذا كنتم تُلقون من على ظهر السفينة؟ لقد صوَّرنا كل تحركاتكم.

(ملاحظة: أبلغني روّاد السفينة في ما بعد، أنهم جميعاً سئلوا السؤال عينه)

- لم نلقِ شيئاً.

- يا دكتور أنت كذاب.

- كنا نلقي بعضَ أعقاب السجائر وبعضَ قشرِ الليمون للأسماك التي جاعت بسبب حصاركم لشاطئ غزّة.

- أنت مصرّ على الكذب.

- لقد ألقينا في البحر عدداً من الصواريخ... هل ستعيدونها إلينا؟

لقد أذهلني هدوؤه، تجاه الأجوبة، وكان يقف خلفه شاب وفتاة هما أشبهُ بصنمين، فلم يبديا أي ردّ فعل سلبي، أو أية حركة تنم عن فَهمهما لما أقول، وليس من تفسير لذلك سوى أنهما يجهلان العربية.

يشعل سيجارة ويصمت فأسأله، هل لي ببعض الأسئلة؟

- تريد أن تحقق معي؟

- كلا، أريد ان أستفسر، لعل في أسئلتي أجوبة عن أسئلتك.

- تفضل.

- لقد أمضينا ستين سنة من الحروب، تقتلون أولادنا ونقتل أولادكم، وهناك ستون قادمة، ألست متزوجاً، ألا تخشى على أولادك من المستقبل؟ هل أنت مرتاح الضمير والبال عندما تعود إلى المنزل بعد العمل؟

- **هذا صراع لا ينتهي بيننا إلاّ بحرب عالمية ثالثة.**

- لقد عرضنا عليكم دولة ديمقراطية في فلسطين يتعايش فيها أبناء هذه الأرض الحقيقيون، مسلمين ومسيحيين ويهوداً، لماذا ترفضون وتأتون بيهود العالم إلى فلسطين، وهم لم يولدوا فيها.

- نحن قَبْلكم في هذه الأرض.

- ليس صحيحاً، وعلى فرْضٍ أن ما تقوله صحيحٌ، ألا تقبلوننا شركاءَ لكم في هذه الأرض وعمرنا فيها الآف السنين؟

- لا جواب.

- يراودني سؤال، كثيراً ما فكرت فيه.

- تفضل.

- إن اليهود في أوروبا وأميركا يقودون العالم بالأدب والسياسة والاقتصاد والفلسفة والمال والإعلام، وقد حصدوا أكبر عدد من جوائز «نوبل» في مجالات علمية شتى، ولكني لم أسمع ولم أقرأ عن أي يهودي داخل «إسرائيل» قد برعَ بالأدب، أوالقصة أو الرواية أو المسرح أو الشعر أو الفن عموماً، هل من تفسير لذلك سوى أن فكركم محموم، وأنكم مشروع عدواني وغير انساني؟

- هذا غير صحيح... هناك الكثير.

- أعطني مثلاً عن أديب واحد.

- هذا غير صحيح.

- أنتـم تتفوقـون بالتكنولوجيـا والحروب، وقد حولتم «إسـرائيل» إلى شبه ثكنة عسكرية وإلى مراكز أبحاث علمية، أمّا الأدب الإنساني فشبه معدوم لديكم، هل هذا بسبب العسكرة في «مجتمعكم»؟

- هذا غير صحيح.

يعود الرجل فيأخذ المبادرة مني بعد ان «نسي» انه ضابط في جيش العدو الصهيوني الغاشم.

- متى سيصبح لبنان شيعياً، ومتى ستجتاحون بيروت مجدداً؟

- لن يصبح لبنان شيعياً، فهو بلد متنوع الطوائف، وعندما يصبح لبنـان شـيعياً يكـون مشـروعكم قـد انتصـر، لكـي تبرّروا عـدم تقبُّـلكم للآخرين.

- لماذا أنتم متطرفون إسلامياً وتكرهوننا؟

- كل الاسـتطلاعات تقـول إن نتنياهـو وليبرمـان أصحاب الدعوة العنصرية سـيربحان الانتخابات المقبلة عندكم.. تتحدثون عن التطرّف الإسلامي وقد أفرغتم القدس من مسيحييها.

- الى أين تعتقد أنك ذاهب الآن؟

مـن شـعوري بالتفـوق النفسـي عليـه، لـم أفْقَهْ معنى سـؤاله، وكان ينتابنـي شـعور بـأن التحقيـق سـينتهي بنـا إلى السـجن كنتيجـة منطقية، «لخرقنـا قوانيـن الملاحـة البحريـة»، لكـن علمـت في مـا بعد أن بعض

روّاد السفينة بعد التحقيق معهم قد أُبلغوا وأُشيرَ عليهم بضب حقائبهم مقدمة «للهجرة إلى الشمال».

- إني عائد إلى غزّة...

- لا... أنت ذاهب إلى السجن.

- أتمنى أن تحاكموني، لأجعل من هذه المناسبة محاكمةً لكم على جرائمكم بحق الشعب الفلسطيني والشعب اللبناني وخصوصاً إبان حرب تموز 2006 الأخيرة، وحرب غزّة قبل اسابيع، لكنكم لا تتحمَّلون بقاءنا ليلة واحدة هنا.

- **لماذا؟**

- **هل نسيت أنني قادم من لبنان...؟**

- **يبدو لي أنك رجل سياسي مرتبط بحزب الله الإرهابي وحركة حماس التخريبية.**

- **كل عربي يتمسك بأرضه هو بنظركم مُخرب... حتى الشهيد ياسر عرفات، بالرغم من توقيعه اتفاق أوسلو إعتبرتموه مخرباً وإرهابياً، فحاصرتموه وقتلتموه بالسم.**

- **ياسر عرفات** دجّال ومخادع كبير لا تحدثني عنه. انتبه لنفسك، قالها بالإنكليزية «Take care»، **ثم وقف صامتاً لبرهة وبكل هدوء قال لي: سلّملي على السيد حسن نصر الله، نحن نكرهه لكن نحترمه... قل له العقيد «فلان» بيسلم عليك.**

- **يسعدني أن أقول لك إن هذا السلام لن يصل.**

خرج متأملاً... وعند الباب إلتفت إليّ، وقال: وضّب حقائبك.

ما زلت بعيداً عن فهم معنى قولة «وضب حقائبك»، فأنا في انطباعٍ أن وجهتي أحد السجون فقلت له: «هذه السفينة هي وقف للفلسطينيين وحرام عليكم، هي حلال لأهل غزة، وحرام عليكم».

وبالعـودة لهـذا الضابـط القديـم الجديد المنتصـب أمامي، لم اجد حركة أفضل من رفع رجلي النازفة بوجهه والقول له بكل برودة: «لن أتحـدث معـك إلا بوجـود محـام، وفـي مطلق الأحـوال أنت من رجال الأمن ولن أتحدث مع أحد إلا إذا كان ذا صفة قضائية».

شعرت أن حركتي هذه، كادت أن تدفع به إلى تفريغ مسدسه في رأسـي، لكنه بشـيء من الحدة والتهكّم قال: «وهل نسـيتَ أني حققت معـك فـي السـابق بصفتـي مـن رجـال الأمن؟»، لأجيبه بصـورة قاطعة: لن أتحدث معك إلا بوجود المحامي، لينصرف عني وأعودَ إلى نعمة النوم التي لن تطول.

* * *

أنـا علـى السـرير «كالزلعـوم» فـي النـار. أتمطَّى...أطُـولُ وأقْصُرْ، أتضخَّم وأَنْحَـل، أطوي رجليّ وأمدّهما، علّني اتخفف من الآلام، أنام وأستفيق. وفي كلتا الحالين... النوم واليقظة، كان التركيز مسيطراً على تفكيـري... وحـول مـا يمكـن أن يحصل فـي الخارج؟ في مصر ولبنان والأردن وسـوريا و.... ومـاذا يجـري فـي ألمانيـا وفـي إيرلندا واليونان حيث انطلاق سـفينتي الناشـطين الأوروبيين، وفي السـويد حيث عدد من النواب كانوا بصحبتنا.

مـاذا حـلّ بمـن نجـا مـن القتـل أو الجرح؟ خاصة تلـك الأميركية الحائزة على جائزة «نوبل»، وتلك المرشـحة للرئاسـة الأميركية، وذلك الضابط الأميركي الذي اسـتقال بعد عودته من العراق، وهو قد وشـم على خذه رسماً بشكل دمعة ذَرَفَها على طفل كان زميله يقتله بدم بارد. وكان حاضراً على الدوام الشيخ رائد صلاح الذي يعرف الجميع مدى حقد الاسـرائيليين عليه. وكان المطران كبوجي حاضراً في جميع هذه التساؤلات.

إذا كانوا قد أهانوه في المرة الأولى، فماذا سيفعلون به هذه المرة.

لعلّ الفضول الأهم الذي كان يجتاحني هو معرفة رد الفعل التركي بشارعه وحكومته على قتل وجرح عدد كبير من النشطاء الأتراك.

خمسٌ وسـتون سـاعة كنت فيها نهباً للغموض، لم اسـتقبل زائراً واحـداً سـوى منـدوب الصليـب الأحمـر الـذي أتـى فـي اليـوم الأول،

وتبخَّرَتْ صورته من ذهني، وسوى عدد من الممرضات الفلسطينيات اللواتي حظيتُ منهن برعاية علنية دافئة، ورعاية ضمنية أكثر دفئاً وحناناً. لمستها من تصرفاتهن ونظراتهن وغمزاتهن التي لا تحتاج إلى تفسير.

في الثانية عشرة ظهراً، تنتهي خدمة إحدى الممرضات اليهوديات، فتلتفتُ إلي قائلة: «لقد انتهت مهمتي اليوم، وستحظى الآن بعناية من نوع آخر، هذه السيدة اسمها فاطمة، هي بنت دينك ستتولى خدمتك والاعتناء بك». وقبل أن تكملَ جملتهَا، تجيبها فاطمةُ بلهجتها الفلسطينية المعروفة:» آ... **بَخْدمو بعيوني وإلي الشرف**».

- يا فاطمة ماذا يجري في الخارج؟

- أنا ما بَحكي بالسياسة يا أستاذ، لكن أنت أخويَ بالدِّين وبتحب فلسطين لازم أَخْدمَك بعيوني. وابتسمت ابتسامة تكفي رؤيتها لشرح صدري، ولا يكفي مضمونها لشرح عدة قصص كهذه التي بين يدي القارئ.

وأنا في لجّة التفكير بما يجري في الخارج، أرى رجلاً يدخل الغرفة ويخرج، ثم ليعود باحثاً عني. يتقدّم مني بخطى لم استطع تمييز حركتها ما بين سرعة الملهوف أم سرعة المتمهل الدارس لخطواته.

- «أهلاً وسهلاً... نعم أنا من تَقْصدُه، تفضل....»، جلس بسرعة وكأنه جاء ليجيب عن تساؤلاتي الداخلية التي لم أشارك أحداً فيها، أو جاء ليبلِّغني رسالة عاجلة.

- **«أنا المحامي فؤاد سلطاني من «جمعية عدالة» في فلسطين، جئت لخدمتك»**.

بالله، كيف لي أن أسأله عن الخارج قبل أن يكمل جملته، قلت لنفسي. لكن الإلحاح كاد يطيح باللياقة وأصولها. وبشيء من التحسب والحزم الداخلي قلت: تمهّل يا رجل... أُشْكُرْه في البدء، ومن ثم إسألْه حول ما يجول في خاطرك...

وبسبب من الفضول والإلحاح الداخلي قلت بصمت: اقتنص الفرصة يا رجل، فاللياقة - على لطافتها - تضرُّ أحياناً بصاحبها، فَتَحُول بينه وبين رغائبه، لكن، وبالرغم من هذا الجموح عدت وقلت: لا بأس فالوقت أمامنا، وليس باعتقادي أنه سينصرف لتوّه ويتركني نهباً للغموض.

أضبط أعنَّة أعصابك يا رجل ودعه يكمل كلامه.

كانت مقدمة كلامه ضرورية لإشاعة الاطمئنان في روحي، وللإيحاء بالثقة المتبادلة بيننا، فلا أذهب بتفكيري مذاهب شكٍ خاطئة.

«أنا والد السجين راني سلطاني المتَّهم ظلماً بمراقبة رئيس الأركان غابي أشكينازي. هل سمعت بمحاكمته الجائرة وهو يقضي الآن عقوبة السجن لست سنوات»؟

كانت هذه الجملة عندي كافيةً لإطفاء جذوة السؤال وشهوة الفضول.

أبلغتُه أسفي البالغ، وتحياتي الصادقة للعائلة و«لراني» الذي يدفع ضريبة الاحتلال.

وكان، كما علمت من أخي عبد الله عبد الحميد، وأخي أسعد حمود المشرفَين على مخيمات الشبابية القومية العربية، أنه كان من

خيرة الشباب وأكثرهم مبادرة وتفاعلاً.

وعدت للسؤال: يا أستاذ فؤاد أريد أن أعرف ماذا يجري في الخارج، ليجيبني متسائلاً مبتسماً: ماذا يجري في الخارج..؟ **«مبروك لقد ربحتم الحرب». فشوارع العالم لم تهدأ منذ يومين غضباً واستنكاراً، وأعضاء الحكومة الاسرائيلية يشتُمون بعضهم بعضاً ويتقاذفون المسؤولية، وبعضهم الآخر يُنكر معرفتَه بالعملية مستنكراً عدم إعلامه بها. وحسني مبارك أمر بفتح معبر رفح إلى غزّة. إنّها «الحرب السادسة» وقد ربحناها. «أهنئك يا دكتور، عندك ولد الله يحميه، لقد رأيته على التلفاز، معنوياته عالية جداً وبالرغم من شبابه فإنه ناضج تماماً بارك الله بك ما ربيت».**

دمعت عيناي فرحاً من كل جملة سمعتُها.

حرص المحامي على التقاط الصور معي، لينقل في اليوم التالي في الصحف خبر زيارته لي، وتحريري له وكالة قضائية لمقاضاة «إسرائيل»، ولينشر على البريد الإلكتروني صورة مشتركة - كرسيُّه يعانقُ سريري-، مرفقة بتصريح له يحمَّل فيه «اسرائيل» المسؤولية عن المجزرة.

فؤاد سلطاني محام يلتزم قضايا وطنه، في إطار سياسي واحد مع المفكر والسياسي الفلسطيني **عزمي بشارة**، والنائبة في «الكنيست الاسرائيلي» المناضلة **حنين الزعبي**. حين كنت ألتقي حنينَ على الباخرة وأحداثها، كانت أجوبتها مختصرة وسريعة. لقد كانت أسيرة البريد الإلكتروني والمكالمات الهاتفية، واللقاءات الإعلامية المقرّرة سلفاً.

كان انطباعي عنها أنها متعالية وسلبية. ولم أصحُ من هذا

الانطباع الخاطىء إلا حين رأيت «زملاءها» من النواب الإسرائليين في «الكنيست» يتجاسرون عليها، وينكرون عليها حقها بتمثيل شعبها والنطق باسمه.

في معركة حنينَ معهم... أمواج من الحقد تحطَّمت على صخرة عنفوانها. وأفواج من الكراهية «تجمّدت» عند برودة أعصابها ورباطة جأشها. من تلك المرأة الصلبة بوجه الاحتلال إلى تلك الأم الحنون وذات القلب العطوف والأخت الحانية، حين حادثتني من فلسطين وأنا في عمَّان لتطمئن على صحتي، حين ذهبت مع أخي نبيل الحلاق، للادلاء بشهادتنا عن المجزرة أمام بعثة مجلس حقوق الإنسان في الأمم المتحدة.

* * *

اليوم الثالث يكاد يكتمل. ولا أعرف شيئاً عن مصيري في هذا المشفى. لم أعرف أن مفاوضات «على رأسي» كانت تدور بسبب تعنُّتِ حكومة العدو وممانعته في إطلاق سراحي. مرة بحجة محاولتي دخول «إسرائيل» للمرة الثانية، وأخرى بحجة أن حجم الإصابة لا يسمح لي بترك المشفى، ومرة ثالثة بإصرار العدو على إخراجي من فلسطين عبر الأردن، لا عبر مَعْبر الناقورة الذي عدتُ منه في المرة الأولى. ضحكت كثيراً لما علمت من حديث تلفزيوني ما قاله رئيس مجلس النواب الأستاذ نبيه بري، لأخي ورفيقي وزير الداخلية الأسبق بشارة مرهج، في معرض قلقه عليّ:

-خايف على هاني من إسرائيل؟

-خاف على إسرائيل من هاني.

أفكار على طريق النمل، يتداخل فيها الذاهب بالآيب، فيه النملة

الحاملة في فمها غلة الشتاء، وفيه النملة الخائبة غير اليائسة، تتراجع لتتقدم، والهدف واحد...

وما زاد في شكوكي حول وضعي ومصيري، جلبةٌ في الغرفة، محورُها الجرحى الأتراك الذين بدأوا بالاختفاء واحداً تلو الآخر.

مغادرة الجرحى الأتراك، وتنظيف الممرضات للأرض، وإعادة فرش الأسرَّة الخالية، وروائح المنظفات أشعرتني بنقص الأوكسجين في رئتيَّ. وتساءلت، هل انتقلوا إلى غرفة أخرى ليخضعوا للعلاج المكثف وجراحهم لا تزال على حالها؟. وككل شيء ضدُّه من جنسه، فقد استنتجت أخيراً أن مغادرة الجرحى قد أشعرتني بشيء من الراحة والاطمئنان، وجعلتني أستعيد التنفس الطبيعي، لأن الممرضات قد نزعنَ إبر المصل من شرايين الجرحى... فإخلاؤهم للغرفة مؤشر على إطلاق سراحهم. إذن... هي بداية النهاية للأسر والاعتقال.

وحيداً في الغرفة، يتنازعني شعوران متناقضان... هم ذهبوا، وهذا مؤشر لذهابي، وأنا باق وهذا مؤشر لحالة جديدة يجب التعاطي معها بما يتطلبه الموقف من صلابة وكرامة.

لقد هزمناهم على ظهر الباخرة وربحنا الحرب، كما وصفها الأستاذ **فؤاد سلطاني**. وبدأت هذه الجملة القصيرة «**ربحنا الحرب**» تجد مطرحها في عقلي، لأن ما جرى حسب رأيه كان حرباً من نوع مختلف لم يحسب لها العدو حساباً، وكانت نتيجتها في صالحنا. أنا الآن أسير حرب واقعاً وقانوناً. هذا الشعور حلق بي إلى الأعلى طائراً على أجنحة من الفرح بلا قلقٍ يذكر... وببسمة مشفِقةٍ على حال زوجتي.

أثناء الإستعداد للسفر كانت «الست جهان» متوترة لدرجة عدم السيطرة على أعصابها. لقد تحايلتْ على نفسها في الرحلة الأولى، فهي كانت تُشعرني بقلقها بخفر ومواربة مداراةً لشعوري وقراري بالسفر. أما الآن، فإن حيلتها على نفسها وعليَّ قد انكشفت، حين اكتشفتْ أن لا حيلة لها في الحؤول دون مشاركتي في الرحلة.

خلال توضيب ثيابي، وبين كل قطعة لباس وأخرى تضعها في الحقيبة، كانت تخترع إشكالاً من تحت أظافرها... تصرخ بالأولاد لأتفه الأسباب، ولم تنجُ الخادمة من التأنيب لأنها تركت غرفتها مضاءة، فهذا هدر للمال لن تقبل به بعد الآن... يا للهول!

تلتفت إليّ لتلومني على عزوفي عن تزويد الحقيبة بربطة عنق لي في الرحلة، وتشتمُ جرس المنزل الذي يوتّر الأعصاب.

بين التوضيب والتأنيب، وافتعال الإشكال من كل الأشكال، كنت أتغامز مع ابنتي الحبيبة **ريم** موحياً لها بتفهم وضعها ومداراته.

لم أنجُ بدوري من التأنيب لعدم تدقيقي بالمواعيد، وعدم اهتمامي بالتفاصيل. فأنا متهم عندها بأني لا أعرف متى تنطلق الباخرة من تركيا، ولا متى تصل إلى غزّة، وكم يوماً سنمكث هناك وكيف سنعود، بالطائرة أو بالباخرة ذاتها؟!

هي تسأل عن «أبسط» الأمور لمسافر يُفترَضُ إلمامُه بقضايا السفر، لكنني عاجز عن الجواب. جلُّ ما تريده مني أن أعرف متى سأعود، لأجيبَها بضيق وتململ: «معليش لما بُوْصل يا حبيبتي بِتْنزّلي طبخة الملوخية من الثلاجة».

وكما يقال «يا كلمة اللّي قُلتها... ويا كلمة اللي خسرتها...» وبغصة جارحة تقول: «عم تتمسخر عليٍّ كمان... كتّر خيرك».

فـي جميـع المعـارك والمراهنات التـي تحصل بين الأزواج تخرج المرأة منتصرة، وقد توّجت حبيبتي انتصارها في هذه المعركة باعتراف صريح مني بأني لا أهتمّ بالتفاصيل، ولا أعرف متى سأعود.

* * *

سكون مقيم في الغرفة... حتى لتكادُ تسمعُ صوتَ فراشة إذا حلَّقت. فالممرضات «تبخّرن»، والحراس المتناوبون على مدار الساعة قد أخلوا الغرفة إلى ردهة مقابلة. آخر صوت سمعته، هو «سرسرة» الزرد الحديدي الذي كان يربط معصمي إلى السرير، ربما خوفاً من فراري.

يدخل رجل بلباس ممرض في هيئة صحية، لا يلتفت إليَّ. لا بل متعمِّداً، يتجاهلُ وجودي، ليأخذ ناحيةً خلف الباب، ويباشر الصلاة... إنه مسلم ويصلي في غرفتي! هل يتعمَّد ذلك، أم هي مجرد صدفة؟

أتحصّل في سريري، وآخذُ وضعية الصلاة وعيني عليه.

«**الله أكبر، الله أكبر**»، أقولها بصوت مسموع، «وأشهد أن محمداً رسول اللـه»، أقولها بصوت أعلى. هو على خشوعه مُعْرِضٌ عني ومتضرع للـه بصمت، وأنا دمعتي تترقرق من عيني، وصوت الدمعة يكسر صمت الغرفة.

التفتْ إلي يا أصَمُّ، أقول في داخلي، ألم تسمع صوت دمعتي؟ فأعلى الأصوات هو صوت الدمعة في هذه الحالة، وأنا لا أحتاج لشيء بقدر حاجتي للكلام بعد الصلاة.

تنتهي الصلاة فأقول لـه: «تقبل اللـه»، لينطق آخيراً بجملة واحدة «بعد ساعة سننطلق باتجاه الحدود».

لم تفاجئني هذه الجملة، وعادت بي الذكرى إلى قصَّة «غزّة في مرمى البصر» حين سألني الضابط بعد التحقيق قائلاً: الى أين تعتقد أنك ذاهب الآن؟

أنا أتحسس كثيراً من كلمة الحدود. فالحدود سدود، وكانت كلما ذُكرتْ، تَستفزّني وتُشعرني بالقَطْع والبُعْد، أما تلك التي ذكرها هذا الرجل، فهي تعني الوصل والقرب.

وإذ يتآخى المبنى والمعنى في سياق نص معيَّن فيؤدي التآخي إلى فكرة محددة، فهما يتآخيان في سياق آخر، ليؤدي النص إلى معنى مختلف.

أعلِن من هذه الغرفة توبتي عن كره الحدود، لا بل أعلنُ عشقي لها، ولهفتي لِلُقياها. كُفري بالحدود صار إيماناً بها.

هي تعني اليوم فكرة الاختراق، وتعني نصراً مبيناً بعد أن كانت هزيمة بائنة. كانت الحدود سبباً، وهي اليومَ نتيجة

انا في انفرادي حر غير طليق، وكثيرون غيري طلقاءُ وليسوا أحراراً، فرحي لا يعادله فرح، وفضولي لعناق المستقبل ليس بعده فضول.

تطول الساعة التي وعدَني بها هذا الرجل، حتى لَخِلتُها تجاوزت الأيام. لو كان بإمكاني أن أسير وأعدو، لوصلت إلى الناقورة بمدة تَقِلُّ عن فترة الانتظار.

سبحان الله كيف تتغيّر الأمزجة ويتناقض الشعور بين لحظة وأخرى، فما إن أصبحتُ خارج الغرفة متجهاً إلى الفناء الخارجي، حتى ألفيتُ نفسي أسيراً ومقيداً، حزيناً لدرجة الكآبة. الناس ليسوا ناسي، والهواء ليس هوائي.

أنا غريب في هذا المحيط... من يدير هذه الأرض؟ ومن يتحكّم بخيرها وغلتها؟ صكوك ملكية أصحابها، حبر على ورق.

سيارة الإسعاف التي أقلّتني كانت أشبهَ بتابوب مَوتى، لكن سبحان اللهِ فالحظوظُ تُخالف الأحوالَ في بعض الأحيان. فالتابوت كان مفتوحاً وهذه نعمة تُذكر، ويداي طليقتان من القيد وهذه نعمة تُشكر، والسيارة مضاءة من الداخل وهذه نعمة تُرى. ما هذا «العز» الذي أنا فيه؟ الفرق بين ظلام القبر ونورهِ هو الفرقُ بين الموت والحياة. ها أنذا حيّ يرزق في قبر مؤقت، في جنازة خيالية متواضعة صامتة بعدد محدود من المُشيِّعين، وفوق رأسي ذلك الممرض، «الناشط» العربي حامل الجنسية الإسرائيلية الذي صلَّى في غرفتي، ورجل أمن ترك سلاحه يرتاح على ركبتيه، وسائق متقدّم في السن، عينه على سيارة الأمم المتحدة في الأمام، وعلى سيارة عسكرية في الخلف.

لم يدرِ «المشيّعون» أنّ «الميت» يعرف قصة طائر الفينيق، وأن «الجنازة» ستصير بعد ساعات عرساً، يهزج فيه الرجال وتتمايل خلاله الصبايا، ويهرع إليه الأطفال ليأكلوا ما فوق حاجتهم من الملبس والحلوى، ويملأوا جيوبهم بمشاهدَ وذكرياتٍ لقابل الأيام.

انا في بلاد جديدة ولا أسوح فيها! بل أنا «أسوح» مستلقياً على ظهري... بل أنا في بلادي ولا أراها. أريد ان أرى في فلسطين ما قرأتُ عنه، وما تناقَلَتْه الألسن، لكن الرغباتِ... دونها الصعوبات.

وما لا يدرك كله، لا يتركُ جلّه، فالحيلة وسيلتي إلى الهدف... والسؤال يؤدي إلى نصف الجواب. وأروح «استجوب» ذلك «الناشط» العربي ذي الجنسية الإسرائيلية، لأختلسَ منه أسماء القرى والمدن والشوارع والاتجاهات. وما سمعته من ذلك «الناشط»، كنت قد رأيته في المرة الأولى.

هناك على مدى مئات الأميال... ينداح ذلك الشارع الذي أسموه «شارع إسحاق رابين» وكان قبلاً شارع «صلاح الدين الأيوبي». يا للجغرافيا كيف تشوه التاريخ... وعلى مساحات شاسعة من الأرض، أقلّ قليلاً من حسرة مطرودٍ من بيته، انْتُزِعَ الحق من أهله، وغرست فيه الأبنية كأوتاد لأرض كانت تميد تحت أقدام الغزاة، وتغيَّرت أسماء المدن والقرى والأنهر والأحرف.

وفي الجانب الآخر من الصورة جرّافة تغيِّر معالم الأرض، ورجال غرسوا أظافرهم في التراب تمسكاً بها، منهم من نزفت أظافره، ومنهم من سوَّته الجرافة بالأرض، فلم يُرَ دمه الذي غار وتجمع في أعماق قلعة منيعة.

وفي يوم ربيعي مشمس قرّر «الرحالة» البحث عن هذا الدم في القلعة، فسلكوا دروباً متعرّجة، ووطئوا الوديان، وتسلّقوا الجبال، وحفروا الأنفاق، لكن حراس القلعة ومن جميع الجهات، كانوا لهم بالمرصاد. لم يكن أمامهم إلا ركوبُ البحر لاكتشاف هذا الدم، وبدل أن يعثروا عليه، أضافوا إليه في بحر فلسطين دماءً جديدة...

على أهمية ما حملته هذه السفن من مساعدات عينية، فإن أعظم ما حملته وأفْعَلَه، هو تلك العواطف الجياشة، وذلك النبل المجموع من أقاصي الأرض، والمجبول بحرارة اللقاء بفلسطين وأهلها.

كانت الفضائيات العاملة في غزّة تحمل إليها ومنها، أصدق المشاعر وأنبل العواطف، فسهر الأهالي الليالي الطوال على الشاطئ ينتظرون وصول «أسطول الحرية»، وانطلقت الزوارق والمراكب مزدانة بأعلام فلسطين، «فافترشت» أرض البحر، و«نصبت خيامها» فيه، تلهفاً للقاء الأحبة، على ما يقول الشاعر الجاهلي:

وأكثر ما يكون الشوق وصلاً

إذا دنت الخيام من الخيام.

حتى صيادي الأسماك، فقد وفرّوا ما جَنَتْه شباكُهم قبل الوصول المفترض للأسطول، لتقديمه وليمة للضيوف الأعزاء.

هو «العالم الحر»، فعلاً لا قولاً، ينتصر للحق أينما وجد.

وهي العروبة الحضارية، التي ترى في احرار العالم أخواناً...

هي رحلة التناصر والتعاضد في «حملة صليبية» مباركة هذه المرة، لا إستعمارية ولا إستيطانية، بل هي فعْلُ توضيح بين المشاركين الغربيين وأندادهم العرب، لفَهْم مُلتبس كان قائماً على معادلة: «أن كل الغرب إستعمار»، و«أن كل العرب طغيان وتخلف وعبودية».



د. هـاني سليمـان

- عضو الأمانة العامة للمؤتمر القومي العربي.
- رئيس لجنة حقوق الإنسان في المنتدى القومي العربي.
- عضو مؤسس في تجمع اللجان والروابط الشعبية.
- رئيس لجنة المبادرة الوطنية لكسر الحصار عن غزة.
- محام وأستاذ جامعي.

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

ISBN 978-614-01-0215-6
9786140102156

تصميم الغلاف: علي القهوجي